

نُصَحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَتَبْيَانُ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ
شَرْحُ لِقْصِيدَةٍ:
«السِّيَرُ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ»

لِلْعَلَمَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

(المتوفى سنة 1376 هـ)

تصنيف:

الصغير بن عمار

-غفر الله له ولوالديه-

النسخة الثانية (مصححة ومزودة) - 1440 هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي خَلَقَ الخَلْقَ ليعبده، وبالإِلاهية يفرده، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، فانقسم الناس بذلك إلى سائر إليه مُقَرَّبٍ سعيد، ومُتَخَلِّفٍ عن الرِّكبِ مُعَذِّبٍ بعيد. وصلى الله وسلم على خير خلقه، وإمام رسله، محمد بن عبد الله. اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن استنَّ بسنته، وسار على دربه، واهتدى بهديه.

أما بعد،

فهذا شرح متوسط على «قصيدة في السير إلى الله والدار الآخرة» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

وأصل هذا الشرح مجلس إملاء⁽¹⁾ ألقيته في «مسجد الأثرak»⁽²⁾ بمدينة «كلارمون فيرون» الفرنسية. وكان تاريخ إلقاء هذا الدرس فجر الأحد 15 من جمادى الأولى لعام 1435، الموافق لـ 16 مارس من عام 2014 ميلادي.

1- الدرس الصوتي موجود على هذا الرابط:

<https://www.dropbox.com/s/23yev245p360or5/%D8%B4%D8%B1%D8%AD%20%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%88%D9%85%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%B1%20%D8%A5%D9%84%D9%89%20%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A7%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D8%AE%D8%B1%D8%A9%20%D9%84%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D9%8A.mp3>

2- ومن فضل الله علي وعلى إخواني أن درَّستُ في هذا المسجد العديد من الكتب العلمية في عدة فنون شرعية، ومنها: فتح المجيد، وكشف الشبهات، وشرح الواسطية للهراس، ولعة الاعتقاد، وشرح الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ (ولم يتم بعد)، والوصية الصغرى لشيخ الإسلام، وتائية الألبيري، وأبواب في الفقه، وغير ذلك من الرسائل. والله الحمد والمنة، مع الشكر للقائمين على هذا المسجد، و«لَا يَشْكُرُ اللهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ»

=

وقد قام بتفريغها، من الدرس الصوتي، الأخوان الفاضلان الوفيان: «خير الدين الغول»، و«غازي عبد الناجي» وفقهما الله لكل خير، وبارك فيهما، وختم لهما بخير.

ثم قام الأخ الفاضل «خير الدين الغول» سده الله، وثبت على الحق خطاه، بتخريج أحاديث الشرح، معتمدا على «الموسوعة الشاملة»، وقد بذل فيه جهدا كبيرا، فجزاه الله خيرا. ولما نظرتُ في التفريغ، وجدت بعض الجمل تحتاج إلى تحرير، وأخرى إلى تقديم وتأخير، مع عزو للمنقول، وزياداتٍ تحقق من هذا الشرح المُبتَغى والمأمول، فعَمَدْتُ إلى ذلك، معتمدا أولا على الملك العلام، ثم على دواوين علماء الإسلام، رحمهم الله، وأكرمهم أعظم إكرام.

وقد اعتمدت في هذا الشرح على عدة مراجع، ومن أكثرها كتب الشيخين السلفيين: شمس الدين ابن قيم الجوزية، وزين الدين ابن رجب الحنبلي، عليهما من الله الرحمة والرضوان، مع نقل آثار كثيرة للسلف من كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽³⁾.

واستفدت كثيرا من شرح المصنف نفسه: العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ، وتعليق شيخنا صالح بن عبد الله العصيمي حفظه الله⁽⁴⁾ على هذه المنظومة المباركة، مع عدة كتب أخرى.

النَّاسِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الألباني. «فمن كان من طبيعته وخلقه عدم شكر الناس على معروفهم وإحسانهم إليه، فإنه لا يشكر الله لسوء تصرفه وجفائه، فإنه يغلب عليه في مثل هذه الحال أن لا يشكر الله...». قاله العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ.

3- وهو مختصر من «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني، ولا شك أن النقل من الأصل أولى لأنه مسند، غير أنني لا أملك إلا صفة الصفوة، ويشق علي مراجعة كل نقل على كثرة ما أوردت، وعليه، فمن أراد مراجعة الخبر المسند فليراجع الأصل، والله سبحانه المستعان، ومنه المدد، وعليه التكلان.

4- أرسلت نسخة من هذا الشرح لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله، فرد قائلا: «نفع الله بك وزادك علما... قرأت منه مواضع فراق لي... دمت مباركا»، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وسميتُ هذا الشرح: «نصحُ المؤمنين وتبيانُ منازلِ السَّائرين: شرحُ لقصيدةِ السَّيرِ إلى الله

والدَّارِ الآخِرَةِ». وحُقِّ لي في مثل هذا المقام، أن أتمثل بقول الشاعر:

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ النَّجْبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمَّلًا غَيْرَ مَا يَقْضِي بِهِ عَرَجِي
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الْأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ
ولكنَّ الأمرَ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ
فَلْيَفْعَلْ»⁽⁵⁾.

وما أجمل قول شيخ المؤرخين الجزائريين أبي القاسم سعد الله رَحِمَهُ اللهُ تعالى في كتابه «حبر
على وَرَق»: «اكتبوا حتى بأهدابكم وأظافركم إذا لم تُطِعكم أقلامكم...». انتهى.
أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا، أن يَكْتُبَ لهذا الشرح القبول، وأن ينفَع به
كاتبه، وكل من سعى لإخراجه، كما نفع بأصله، وأن يجعله لي ذُخرا يوم ألقاه، حين لا ينجو من
عذاب الله إلا من رضي الله عنه واجتباها، إنه ولي ذلك ومولاه.
هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

وكتب ⁽⁶⁾

الصغير بن عمار

ليلة الأربعاء 19 من شعبان لعام 1435

الموافق لـ 17 جوان 2014 بمدينة «كلارمون فيرون» بفرنسا⁽⁷⁾

5- رواه مسلم، كتاب السَّلام، بابُ اسْتِحْبَابِ الرُّفِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ وَالْحُمَةِ وَالنَّظْرَةِ، رقم (61-2199).

6- وأعدت تحرير وتصحيح بعض الجمل، مع زيادة بعض النُّقول، يوم الاثنين 8 رمضان 1435 الموافق لـ

7 جويلية 2014 بمدينة «تولوز» الفرنسية.

نص المنظومة

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في قصيدته المشهورة بـ «قصيدة

في السير إلى الله والدار الآخرة»:

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى	وَتَيَمَّمُوا مَنَازِلَ الرِّضْوَانِ
فَهُمُ الَّذِينَ اخْلَصُوا فِي مَشِيهِمْ	مُتَشَرِّعِينَ بِشَرْعَةِ الْإِيمَانِ
وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ	بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدَّيَّانِ
وَهُمُ الَّذِينَ مَلَأُوا قُلُوبَهُمْ	بِوَدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ
وَهُمُ الَّذِينَ قَدَّ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ	فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ
يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِيكِ بِفِعْلِهِمْ	طَاعَاتِهِ وَالتَّوَكُّلِ لِلْعُضْيَانِ
فِعْمَلِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَائِبُهُمْ	مَعَ رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ وَالنُّقْصَانِ
صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا	شَوْقاً إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ
نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمْ بِهَا	قَدْ أَصْبَحُوا فِي جُنَّةٍ وَأَمَانِ
شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ	بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ
صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ	مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَنِ

7- ثم يسر الله أن علقت على هذا الشرح -بعد انتقالني إلى مدينة «ليون»- في ثمانية مجالس في رمضان 1440، ضمن درسي الأسبوعي بمجموعة «المتخصص» على شبكة الأنترنت، فكان الشرح معتمدا بالكلية على كتابي هذا، وعندها صححت فيه أموراً، وزدت أخرى كما حذفته منه شيئاً يسيراً، فجاءت هذه النسخة الثانية على هذا الوجه، والله المسؤول أن يتقبله عنده خالصاً لوجهه.

وهذا رابط دروسي على اليوتيوب في التعليق هذا الشرح: <https://www.youtube.com/watch?v=oEHjwBrRLw>

عَبَدُوا الْإِلَهَ عَلَىٰ اعْتِقَادِ حُضُورِهِ
 نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَىٰ مَحْبُوبِهِمْ
 صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا
 بِاللَّهِ دَعَوَاتُ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا
 عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاعِلِ كُلِّهَا
 حَرَكَاتُهُمْ وَهُمْ مُمْتَهُمٌ وَعَزُومُهُمْ
 نِعَمَ الرَّفِيقِ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي
 فَتَبَوَّؤُوا فِي مَنَزِلِ الْإِحْسَانِ
 بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ
 أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنَزِلِ فَوْقَانِي⁽⁸⁾
 خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ⁽⁸⁾
 قَدْ فَرَّغُوا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ
 لِلَّهِ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ
 تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

8- رجح بعض المعاصرين أن هذا البيت هكذا:

رَعَوْا الْحَقَائِقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلِّهَا
 خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

وسياتي التنبيه عليه أثناء الشرح.

بداية الشرح

هذا شرح لـ «قصيدة في السير إلى الله والدار الآخرة»⁽⁹⁾، للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى. وهي منظومة ذكر فيها الشيخ رحمه الله بعض منازل السائرين إلى الله تعالى.

معنى السير إلى الله

والسير إلى الله: هو قطع الطريق إليه سبحانه وتعالى. والقطع هنا إنما يكون بالقلب، لا بالبدن. قال الحافظ ابن رجب رحمه الله⁽¹⁰⁾: «سفر الآخرة يُقطع بسير القلوب، لا بسير الأبدان». وقال يحيى بن معاذ رحمه الله⁽¹¹⁾: «مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب». وقال ابن القيم رحمه الله⁽¹²⁾: «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه». انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله⁽¹³⁾: «المؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يبلغ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

قال الحسن: يا قوم المداومة المداومة، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلا هذه الآية... انتهى.

9- واعتمدت في هذا الشرح على النسخة التي صححها شيخنا العصيمي لهذا النظم.

10- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 434).

11- «صفة الصفوة» (2/ 294).

12- «الفوائد» (ص 173).

13- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 442).

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيّد بحُبه، وصار في وثاق العبودية، فلم يبق له مَفزَعٌ في النوائب، ولا ملجأً غيره، ويصير عدّته في شدّته، وذخيرته في نوائبه، وملجأه في نوازله، ومستعانه في حوائجه وضروراته.⁽¹⁴⁾

واعلم -رحمك الله- أن الوصول إلى الله نوعان⁽¹⁵⁾:

أحدهما: في الدنيا.

والثاني: في الآخرة.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوب تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنست به، فوجدته منها قريباً ولدعائها مجيباً.

وأما الوصول الأخرى: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه.

ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب

والمشاهدة. انتهى

فالعبد في حياته إنما هو ماض إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمر بمنازل لن يدخل الجنة حتى يقف بها. والشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ تعالى سيذكر بعضها في هذه المنظومة اللطيفة، فإنها، كما قال مصنفها⁽¹⁶⁾: «قد حصلت على كثير من منازل السائرين إلى الله، التي توصل صاحبها إلى جنات النعيم في جوار الرب الكريم، وتمنعه من عذاب الجحيم والحجاب الأليم».

ومن فصل هذه المنازل، شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «منازل السائرين»، والذي شرحه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العُجاب: «مدارج السالكين بين

14 - شرح المصنف رَحِمَهُ اللهُ (ص 9).

15 - «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 447-448) باختصار.

16 - شرح المصنف رَحِمَهُ اللهُ (ص 9).

منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وهو كتاب معروف عند الناس، وقد ذكر فيه مؤلفه رَحْمَةُ اللَّهِ
منازل كثيرة بعضها واجب وبعضها دون ذلك...

والذي سيذكره الشيخ ابن سعدي رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى هو خلاصة لطيفة، تصح أن تكون
كالمدخل لهذا الباب العظيم من تزكية النفس.

بدأ الناظم رَحْمَةُ اللَّهِ بذكر عنوان مؤلفه، وهو: «**قَصِيدَةُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ**».

والسير إلى الله والدار الآخرة أعظم مطلوب يرجوه العبد. وإذا حثَّ العبدُ السيرَ في الدنيا
فإنه سيصل بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون سيره على طريق مستقيم.

قال ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ⁽¹⁷⁾: «والطريق الموصل إلى الله هو سلوك صراطه المستقيم، الذي بعث
الله به رسوله وأنزل به كتابه وأمر الخلق كلهم بسلوكه والسير فيه.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصراط المستقيم، تركنا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَدْنَاهُ، وَطَرَفَهُ فِي
الْجَنَّةِ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادُّ، وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادُّ، وَتَمَّ رِجَالٌ يَدْعُونَ مِنْ مَرِّ بِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ فِي تِلْكَ
الْجَوَادِّ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى الصِّرَاطِ انْتَهَى بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أخرجه ابن جرير⁽¹⁸⁾
وغیره.

فالطريق الموصل إلى الله واحد، وهو صراطه المستقيم، وبقية السبل كلها سبل الشيطان، من
سلكها قطعت به عن الله، وأوصلته دار سخطه وغضبه وعقابه. انتهى.

فليس كل من سار وصل، ولكن الذي يصل هو الذي اتبع واقتفى طريق المرسلين ظاهراً

17- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 444).

18- «جامع البيان» (9/ 671).

وباطنا. فلهذا كانت معرفة الطريق والسعي فيه مع الاستعانة بالله وعدم العجز، رأس الأمر. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»⁽¹⁹⁾. وهذا كلام جامع نافع، محتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة⁽²⁰⁾.
 فينبغي الحرص على الخير مع عدم نسيان أنك لن تصل إلا بتوفيق الله تعالى. وإذا عرض لك شيء فلا تعجز ولا تفتر.

يقول العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ⁽²¹⁾: «فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان برَبِّه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه. ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة: فاتته من الخير بحسبها...». انتهى.
 فإذا حققت هذه الأمور الثلاثة، بلغك الله مُبْتَغَاكَ. وفي الحديث: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ»⁽²²⁾.

ومن جميل كَلِمِ ابن الجوزي⁽²³⁾: «من تفكَّر في عواقب الدنيا أَخَذَ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تَأَهَّبَ للسفر». انتهى.

-
- 19- رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (34 - 2664)، والإمام أحمد، مسند أبي هريرة (14/395)، رقم 8791.
 20- انظر: «بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار» (41-46).
 21- «بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار» (41-42).
 22- رواه الترمذي أبواب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب 18 (أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله)، رقم 2450. انظر: «السلسلة الصحيحة» 2 / 675، رقم 954.
 23- «صيد الخاطر» (ص 9).

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل

قال رَحِمَهُ اللهُ:

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

بدأ الشيخ رحمه الله تعالى بذكر أمرين عظيمين ينبغي أن يتصفَّ بهما كل سائر إلى الله:

الأمر الأول: هو التخلي عن كل ما يعوق ذلك السير.

والأمر الثاني: التحلي بكل ما يفيد في ذلك السير.

[سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى]

ينبغي للسائر إلى الله أن يتجنب كلَّ أمر يعوق سيره، ويضعف مشيه، ويحول بينه وبين مُبتغاه، وذلك أن السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصد سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل...

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح...⁽²⁴⁾

وهذه المعاطب والعوائق بيَّنها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، بقوله⁽²⁵⁾: «وَأَمَّا الْعَوَائِقُ فَهِيَ أَنْوَاعُ الْمَخَالَفَاتِ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، فَإِنَّهَا تَعُوقُ الْقَلْبَ عَنْ سِيرِهِ إِلَى اللَّهِ وَتَقَطِّعُ عَلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ أُمُورٌ: شُرْكَ، وَبِدْعَةٌ، وَمَعْصِيَةٌ. فَيُزِيلُ عَائِقَ الشَّرْكَ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ، وَعَائِقَ الْبِدْعَةِ بِتَحْقِيقِ

24- «طريق المهجرتين» لابن القيم (ص 188).

25- «الفوائد» (ص 188)، وانظر: فصلا في «قواطع الطريق إلى الله» في كتاب «الفوائد» (ص 208).

السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحسن بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فمادام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها. انتهى.

وذكر رحمه الله أن من عقوبات المعاصي⁽²⁶⁾: «أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعْوِقُهُ أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدْعُهُ يَحْطُو إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهِتِهِ إِلَى وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنْكَسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِذَا سِيرَ إِلَى اللَّهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرَّ بِالذَّنْبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسِيرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكَلْبَةِ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ». انتهى.

قال رحمه الله:

[وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ]

تَيَمَّمُوا، أي: قصدوا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 267]، أي: ولا

تقصدوا⁽²⁷⁾.

والمعنى هنا: وقصدوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ.

فهم تحلوا عما يشين وتحلوا بما يزين.

والشيخ رحمه الله تعالى ذكر في هذه المنظومة ما تحلوا به فأوجب لهم كمال المحبة، ولم يشتغل ببيان ما تحلوا عنه، لأن التحلي يُثمر التخلي، فإن من ملئ قلبه بالمقامات الكاملة صدته عن التلطف بنجاسات القلوب من الشهوات والشبهات⁽²⁸⁾.

26- «الجواب الكافي» (ص 76).

27- انظر: «المصباح المنير» للفيومي رحمه الله (ص 357).

28- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 4)، وانظر: شرح المصنف (ص 13-14).

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁹⁾: « وقد أجمع السائرون إلى الله أَنَّ القلوب لا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَاحِبَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونَ صَاحِبَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاوْرُهَا فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا. وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنْ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ». انتهى.

منزلة الإخلاص والاتباع

قال رَحْمَةُ اللَّهِ بعدها:

فَهُمُ الَّذِينَ اخْلَصُوا فِي مَشِيهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشَرْعَةِ الْإِيمَانِ

ذكر الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى في هذا البيت شرطي قبول العبادة، وهما:

- الإخلاص،
- والاتباع.

الإخلاص

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

[فَهُمُ الَّذِينَ اخْلَصُوا فِي مَشِيهِمْ]

فينبغي للسائر إلى الله تعالى أن يكون مخلصاً في سيره، لأن من لم يخلص يُتَعَبُ نفسه فيما فيه خُسرانٌ. قال مالك بن دينار: «قولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعنى»⁽³⁰⁾، أي: لا يُتَعَبُ نفسه، لأنه يعمل فيما لا ينفعه، بل يضره.

يقول ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ⁽³¹⁾: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه». انتهى.

من ملأ جرابه بالرمل، فإنها يُثَقِّلُ نفسه عن السير ولا يبلغ مراده. فلو أن إنساناً سافر وأخذ معه الرمل، هل ينفعه؟ لا، بل يثقله ولا ينفعه. فإذا جاع، هل سيأكل التراب؟ أبداً... لو كان

30 - «صيد الخاطر» (ص 288).

31 - «الفوائد» (ص 62).

ليس معه شيء لكان أحسن، لأنه سيصل في وقت أسرع.

والإخلاص: تصفية القلب من إرادة غير الله تعالى⁽³²⁾.

قال شيخنا العصيمي وفقه الله ناظماً هذا المعنى:

إِخْلَاصُنَا لِلَّهِ صِفَّ الْقَلْبِ مِنْ إِرَادَةِ سِوَاهُ فَافْهَمَ يَا فِطْرُنْ

فقلبك إذا صفتته من كل مراد غير الله جل وعلا، فإنك مخلص. وسيأتي إن شاء الله تعالى في

هذه المنظومة، قول المصنف:

حَرَكَاتِهِمْ وَهُمْ وَمُهُمْ وَعَزُّوهُمْ لِلَّهِ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ

فينبغي للعبد أن يكون لله وبالله ومع الله، وهذا هو الذي يصل يوم القيامة، لأن الصراط

الذي يوصلك إلى الله متصل بالله⁽³³⁾. ومن لم يكن عاملاً لله انقطع ولم يصل، ولهذا قيل: «ما كان لله

دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل».

ومن بدائع ابن الجوزي رَحْمَةُ اللَّهِ⁽³⁴⁾: «من أحب تصفية الأحوال، فليجتهد في تصفية الأعمال.

قال أبو سليمان الداراني: من صَفَّى صُفِّيَ لَهُ، ومن كُدِّرَ كُدِّرَ عَلَيْهِ، ومن أحسن في ليله كوفئ

32- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة، ولعله استفاد من تعريف القشيري للإخلاص

قائلاً: «الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين». ذكره عنه النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن»

(ص 32)، و«المجموع شرح المهذب» (1/ 17).

وفي «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص 335): «الإخلاص: خلوص القلب من تأله سوى الله تعالى وإرادته

ومحبته، فخلص لله، فلم يتمكن منه الشيطان». وانظر: شرح المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 13-14)، وأقوالاً أخرى

في تعريف الإخلاص عند «منزلة الإخلاص» من كتاب «مدارج السالكين» (1/ 459).

33- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 14).

34- «صيد الخاطر» (ص 12-13).

في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله». انتهى.

ولقد اشتد خوفُ السلف من الرياء، وذلك لعِظَمِ عنايتهم ومعرفتهم بالإخلاص.

قال ابن عُيَيْنَةَ: لما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة جزع فدَعَوْا له أبا حازم فجاء، فقال له ابن

المنكدر: إن الله يقول: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحاسب. فجعلنا يبكيان جميعاً.

فقال له أهله: دعوناك لتخفف عليه فزدته، فأخبرهم بما قال.

وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ويلُّ لأهل الرياء من هذه الآية.

وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار؛ العالم والمتصدق والمجاهد.⁽³⁵⁾

وعالمٌ بعلمِهِ لم يَعْمَلَنَّ مُعَذِّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَثْنِ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽³⁶⁾:

«فمن أصلح سريره فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه. فالله الله في السرائر، فإنه ما

ينفع مع فسادهما صلاح ظاهر». انتهى.

فينبغي للعبد أن يجاهد نفسه في طلب الإخلاص والثبات عليه، فالنية محلُّها القلب، والقلبُ

يتقلَّبُ. وقد يما قيل: «من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلى إخلاص».

فنقصان كل مخلص في إخلاصه: بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص،

صار مخلصاً مخلصاً.⁽³⁷⁾

35- «المحجة في سير الدُّلَّة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 456).

36- «صيد الخاطر» (ص 154).

37- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 460) وما بعدها، فإنه مهم للغاية، وفيه سبيل الخلاص من رضا العبد

بعمله وسكونه إليه.

ومن ابتلي بالعُجب، فليُفكِّر في عيوبه وذنوبه.

قال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ⁽³⁸⁾: «وإن أُعجبت بخيرك، فتفكر في معاصيك وفي تقصيرك وفي معاييك ووجوهه، فوالله لتجدنَّ من ذلك ما يغلب خيرك، ويعفى على حسناتك، فليطُلِّ همك حينئذٍ، وأبدل من العجب نَقصاً لنفسك». انتهى.

الاتباع وموافقة السنة

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

[مُتَشَرِّعِينَ بِشُرْعَةِ الْإِيمَانِ]

ذكر هنا الشرط الثاني لقبول العمل، وهو: الاتباع، فإن الله جل وعلا ذكر في آيات كثيرة أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به. وهذان الأصلان جماع الدين أن لا نعبد إلا الله وأن نعبد بهما شرع لا نعبد به بالبدع.⁽³⁹⁾

يقول حافظ الحكمي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «سَلْمِ الْوَصُولِ»:

شَرَطُ قَبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَا
لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ مُوَافِقُ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ

والعبد في إنما يدخل الإسلام بنطق الشهادتين - لا إله إلا الله محمد رسول الله -:

ومحصل هذه الشهادة: أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(39) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 514 - 515).

وعلى هذين الأصلين يبنى الإسلام، وكل ما في الكتاب والسنة تفصيل لما تضمّنه هذان الأصلان، وكل ما نافي هذين الأصلين فهو مناف للكتاب والسنة، أجنبي عن دين الإسلام.⁽⁴⁰⁾
يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ⁽⁴¹⁾:

وَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا وَتَابِعْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ
وليس الشأن في العمل إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويُجبطه، فالرياء وإن دقَّ مُجْبَطٌ
للعمل، وهو أبوابٌ كثيرة لا تُحصَر، وكون العمل غير مقيّد باتّباع السنة أيضًا موجبٌ لكونه
باطلا⁽⁴²⁾. ونقل العلامة عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الإجماع على ذلك، بقوله⁽⁴³⁾:
«ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة». انتهى

ومن أقوال التابعي وهيب بن الورد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يكن همُّ أحدكم في كثرة العمل، ولكن
ليكن همُّه في إحكامه وتحسينه، فإن العبد قد يُصَلِّي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو
يعصي الله في صيامه»⁽⁴⁴⁾. فمن جمع الله له بين هذين الأصلين أفلح وسعد، ومن فاتته الأمان (أي:
الإخلاص والاتباع) أو أحد منها خسر خسرانا مبينا، ومن كان تارة وتارة استحق من الخير
والثواب والمدح بقدر إخلاصه ومتابعته قلة وكثرة وقوة وضعفاً...⁽⁴⁵⁾

40- وانظر «رسالة الشرك ومظاهره» للمبلي (ص 63).

41- منظومة «منهج الحق منظومة في العقيدة والأخلاق» لابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ، مع شرح الشيخ عبد الرزاق
العباد (ص 57).

42- «الوابل الصيب» (ص 9).

43- «فتح المجيد» (ص 404).

44- «صفة الصفوة» (1/ 422).

45- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 13) للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ.

منزلة الخوف والرجاء والمحبة

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ

ذكر هنا أن الذين يسرون إلى الله جل وعلا قد بنوا منازل سيرهم بين منزلتين عظيمتين، وهما: الخوف والرجاء. وسيكملها الشيخ فيما سيأتي بمنزلة الثالثة، وهي: المحبة.

[بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ]

لأن العبادة لا تقوم إلا على الخوف والرجاء.

وقد جمع الله بين هاتين المنزلتين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:

٢٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله جل

ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ومدح أنبياءه بأنهم: ﴿كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو

مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وغير ذلك من الآيات التي لا تُحصى إلا بكلفة.

والخوف والرجاء متلازمان لا ينفك عنهما العبد، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما

أن كل خائف راج آمنه مما يخاف.⁽⁴⁶⁾

منزلة الرجاء

الرجاء: هو أمل يحدو العبد إلى الله جل وعلا طَمَعًا في حصول مطلوبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽⁴⁷⁾: «الرجاء: حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو: الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير». ثم قال: «والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل»⁽⁴⁸⁾. انتهى

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]...

«فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطاً، فهو المغرور»⁽⁴⁹⁾.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وكان الحسن يقول: إن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بري، وكذب، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد

47- انظر: «مدارج السالكين» (1/ 419)؛ و«الروح» لابن القيم (ص 305).

48- ولهذا عرّف شيخنا صالح العصيمي الرجاء بقوله: «أمل العبد بربه في حصول المقصود مع بذل المجهود وحسن التوكل». انتهى (ص 4 من تعليقه على هذه المنظومة).

49- «الجواب الكافي» لابن القيم (ص 44)، وانظر فيه فصلاً في «الذين اعتمدوا على عفو الله فضيّعوا أمره ونهيه» (ص 32).

قتل شهيداً.

وقال بعض السلف: رَبُّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم. ورُبُّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

قال ابن القيم⁽⁵⁰⁾: «ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات...

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]...». إلى آخر ما قال عليه رحمة الله ورضوانه.

قيل لو هيب بن الورد رَحِمَهُ اللهُ: إنا نرجو، فقال: «فلا والله ما رجا عبد قط حتى يخاف، ثم قال: كيف تجترئ أن ترجو رضا من لا يُخاف غضبه إنما كان الراجي خليل الرحمن إذ يخبرك الله ﷻ عنه، قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، ثم قال:

50 - «الجواب الكافي» (ص 45). وانظر فصلاً نافعا في «الفرق بين الرجاء والتمني» في آخر كتاب «الروح»

له (ص 304).

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢] ⁽⁵¹⁾. فعلى العبد أن يعمل، وعليه أن يرجو ويطمع، فبالعمل والطمع يحصل له النجاح ⁽⁵²⁾.

منزلة الخوف

الخوف: هو فرار القلب من الله جل وعلا فزعا منه.

وصفة الخوف من الله تعالى هي أجمع صفات الخير في الإنسان؛ لأنها صفة للملائكة المقربين،

كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]. ⁽⁵³⁾

قال ابن أبي العزّ الحنفي رَحِمَهُ اللهُ ⁽⁵⁴⁾: «فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا،

والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله

تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربه إلى ربه». انتهى.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ اللهُ ⁽⁵⁵⁾: «كل ما يُصِيبُ الإنسان من مَحَنِ الدنيا ومصائبها

وأمرضها وخصوماتها ومن جميع بلائها، لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى الله». انتهى.

وسمّى الله الرجوع إليه فرارا، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع

إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز.

فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى،

51 - «صفة الصفوة» (1/422).

52 - «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 199) للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ.

53 - «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللهُ (9/180).

54 - «شرح الطحاوية» (ص 237).

55 - «الآثار» (2/97).

فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه.⁽⁵⁶⁾

ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]...

والخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال

المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.⁽⁵⁷⁾

ولن يستقيم العبد في سيره إلى الله إلا إذا استصحَبَ منزلتي الرجاء والخوف. فالرجاء

يعصمك من القنوط من رحمة الله، والخوف يعصمك من الأمن من مكر الله، وإذا اختل أحدهما

تضرَّرَ سير العبد، وربما انقطع.

قال ابن رجب⁽⁵⁸⁾: «ولما كان الخوف كالسَّوط، فمتى ألحَّ بالضرب بالسَّوط على الدابة تلفت،

فلا بد لهذا الضرب من حادي الرجاء، يطيب لها السير بحدائه حتى تقطع». انتهى.

وبوّب البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، «باب: الرجاء مع الخوف».

قال بعض السلف: الرجاء قائد والخوف سائق، والنفس بينهما، كالدابة الحرون.

فمتى فتر قائدها وقصر سائقها وقفت فتحتاج إلى الرفق بها والحدو لها حتى يطيب لها

السير.⁽⁵⁹⁾

56- «تفسير ابن سعدي» (ص 958).

57- انظر: «مدارج السالكين» (1/381 وما بعدها) باختصار. وانظر: «منزلة الفرار إلى الله» (1/348).

58- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/443).

59- المرجع السابق (1/443).

يقول العلامة حافظ حكيم رَحِمَهُ اللهُ فِي قَصِيدَتِهِ «الميمية في الوصايا والآداب العلمية»⁽⁶⁰⁾:

واقننت وبين الرجاء والخوف قم أبداً
فالخوف ما أورت التقوى وحث على
كذا الرجاء ما على هذا يحث لتص
والخوف إن زاد أفضى للقنوط كما
فلا تفرط ولا تفرط وكن وسطاً
تخشى الذنوب وترجو عفو ذي الكرم
مرضاة ربي وهجر الإثم والأثم
ديق بموعد ربي بالجزا العظيم
يُنْضِي الرَّجَاءَ لِأَمْنِ الْمَكْرِ وَالنَّقْمِ
وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِم

والخوف والرجاء لا يتمان إلا بمنزلة ثالثة وهي: منزلة الحب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽⁶¹⁾: «القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف». انتهى.

وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَاءِ هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ⁽⁶²⁾

60- (ص 250-253) مع شرح الشيخ عبد الرزاق العباد.

61- انظر: «مدارج السالكين» (1/386).

62- من منظومة «منهج الحق» لابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ (ص 61 من شرح عبد الرزاق العباد للمنظومة).

منزلة المحبة

ولهذا قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ بَعْدَهَا:

وَهُمُ الَّذِينَ مَلَأَ الْإِلَهَ قُلُوبَهُمْ بِوِدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ

فهؤلاء الذين خافوا الله ورجوه لا يستقيم سيرهم إلا إذا أحبوا الله جل وعلا وأقبلوا عليه بقلوبهم.

ولا تُحَدُّ المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. ⁽⁶³⁾

ولهذا يقول العلامة محمد مبارك الميلي رَحْمَةُ اللَّهِ ⁽⁶⁴⁾: «والمحبة من المعاني التي يلتبس شرعيها بشركيها، وتدخل في العقائد الباطنة...». انتهى.

ومع هذا، عرفها بعض أهل العلم بقولهم:

الحب: تعلق القلب بالله جل وعلا ⁽⁶⁵⁾.

وَالْوِدَادُ: صَفْوُ الْمَحَبَّةِ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا وَالطُّفُّهَا وَأَرْقُفُهَا ⁽⁶⁶⁾.

ومن أسماء الله تعالى «الْوَدُودُ»، أي: الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويجبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم

63- انظر: «مدارج السالكين» (2/ 218)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 89).

64- انظر: «رسالة الشرك ومظاهره» (ص 261).

65- هكذا عرفها المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ في شرحه للمنظومة (ص 16)، وزاد شيخنا العصيمي على هذا التعريف، فقال: «المحبة: تعلق القلب بالله، ودوام ملاحظة مرضاته». (ص 5 من تعليقه على هذه المنظومة).

66- انظر مراتب المحبة في: «مدارج السالكين» (2/ 232-235)؛ و«روضة المحبين» (ص 28-58)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص 88).

إليه وُدًّا، وإخلاصاً، وإنابة من جميع الوجوه.⁽⁶⁷⁾

وفي «نونية» ابن القيم:

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحِبَّابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ وَجَارَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ

«ومنزلة الحب هي أصل المنازل كلها، ومنها تنشأ جميع الأعمال الصالحة والنافعة، والمنازل

العالية»⁽⁶⁸⁾.

وهي كما قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ⁽⁶⁹⁾: «المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقررة العيون. وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام» ... انتهى.

يقول شيخ الإسلام⁽⁷⁰⁾: «بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا من محبة الله». انتهى.

والله جل و علا يُحِبُّ وَيُحِبُّ. قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحِبُّ اللَّهَ

67- انظر: «تفسير ابن سعدي» (ص 1115)؛ و«النهج الأسمى في شرح الأسماء الحسنى» (1/ 419-

429) للنجدي.

68- شرح المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 16).

69- «مدارج السالكين» (2/ 215).

70- «الفتاوى» (10/ 33).

ورسوله، ويُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ⁽⁷¹⁾. أما من أنكر المحبة من أهل البدع، فإنهم فرَّغوا قلوبهم من حب الله جل وعلا، ولهذا كانوا أوحش الناس قلوبا. ولهذا أقرب الناس إلى ربهم هم أهل السنة والجماعة، لأنهم هم الذين اعتقدوا في ربهم الاعتقاد الصحيح الذي يحدو بهم نحو مزيد من العلم والعمل.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ⁽⁷²⁾: «وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين، ولكونه إله العالمين. وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود». انتهى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽⁷³⁾: «فمن عرف الله بأسائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب». انتهى.

وعن الحسن بن أبي جعفر، قال: سمعت عتبة الغلام يقول: «من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه، وطوباه، وطوباه».

فلم يزل يقول: «وطوباه، وطوباه» حتى خر ساقطاً مغشياً عليه.

71- رواه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجلاً، رقم (2847)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (2406 / 34) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

72- «الفتاوى» (47 / 10).

73- «مدارج السالكين» (224 / 2).

وقال بدليل بن ميسرة: «من عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ، ومن عَرَفَ الدنْيَا زَهَدَ فِيهَا».

وفي «القصيدة النونية»:

عَرَفُوهُ بِالْأَوْصَافِ فَاَمْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ لَهُ بِالْحُبِّ وَالْإِيمَانِ	عَرَفُوهُ بِالْأَوْصَافِ فَاَمْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ لَهُ بِالْحُبِّ وَالْإِيمَانِ
فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ بِالْأَشْوَاقِ إِذْ مُلِئَتْ مِنَ الْعِرْفَانِ	فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ بِالْأَشْوَاقِ إِذْ مُلِئَتْ مِنَ الْعِرْفَانِ
وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا لَهُ أَدْرَاهُمْ بِصِفَاتِهِ وَحَقَائِقِ الْقُرْآنِ	وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا لَهُ أَدْرَاهُمْ بِصِفَاتِهِ وَحَقَائِقِ الْقُرْآنِ
فَالْحُبُّ يَتَّبِعُ لِلشُّعُورِ بِحَسْبِهِ يَقْوَى وَيَضْعُفُ ذَلِكَ ذُو تَبَيَّانِ	فَالْحُبُّ يَتَّبِعُ لِلشُّعُورِ بِحَسْبِهِ يَقْوَى وَيَضْعُفُ ذَلِكَ ذُو تَبَيَّانِ
وَلِذَلِكَ كَانَ الْعَارِفُونَ صَفَاتِهِ أَحْبَابَهُ هُمْ أَهْلُ هَذَا الشَّانِ	وَلِذَلِكَ كَانَ الْعَارِفُونَ صَفَاتِهِ أَحْبَابَهُ هُمْ أَهْلُ هَذَا الشَّانِ
وَلِذَلِكَ كَانَ الْعَالِمُونَ بِرَبِّهِمْ أَعْدَاءَ حَقِّهَا هُمْ أَوْلُو الشَّانِ	وَلِذَلِكَ كَانَ الْعَالِمُونَ بِرَبِّهِمْ أَعْدَاءَ حَقِّهَا هُمْ أَوْلُو الشَّانِ
وَلِذَلِكَ كَانَ الْجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا بُغْضَاءَهُ حَقِّ ذَوِي الشَّانِ	وَلِذَلِكَ كَانَ الْجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا بُغْضَاءَهُ حَقِّ ذَوِي الشَّانِ

ومع هذا، فلا يستقيم الحبُّ إلا مع الخوفِ والرجاءِ، ولكل منزلة من هذه المنازل حدُّ لو جاوزته لوقع العبدُ فيما لا يرضاهُ اللهُ تعالى. وإنما يصحُّ السيرُ إلى الله إذا وُجد قدرٌ من كل معنى من هذه المعاني الثلاثة.

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ⁽⁷⁴⁾: «العبادة تبنى على ثلاثة أصول: الخوف والرجاء والمحبة. وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد الله بواحد منها وأهمل الآخرين، فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف، والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إلى التعبد نشأت من إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء». انتهى.

74 - «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (1/ 161-162) ضمن «مجموع الرسائل».

وقال ابن القيم⁽⁷⁵⁾: «الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح». انتهى.

وما أجهل قول أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ⁽⁷⁶⁾: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء. وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]. والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق. فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره». انتهى.

الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد

ومن الأسباب تُسْتَجَلَبُ بِهَا حُبُّ رَبِّ الْأَرْبَابِ⁽⁷⁷⁾:

- معرفة الله تعالى ومطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.
- معرفة نعمة الله على عباده، ومشاهدة بره وإحسانه.
- معاملة الله بالصدق والإخلاص، وإيثار محاب الله على محاب العبد، ومخالفة الهوى.

75- «الفوائد» (ص 98).

76- «مجموع الفتاوى» (1/ 73-74).

77- انظر: «مدارج السالكين» (2/ 223-224)، و«زاد المعاد» (2/ 5-8)، و«استنشاق نسيم الأانس من نفحات رياض القدس» (1/ 185-194) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب»، و«جامع العلوم والحكم» عند شرح حديث الولي (رقم 38) (ص 552).

- إنكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.
 - الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
 - مجالسة المحيين الصادقين.
 - التفكير في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء.
 - دوام الذكر مع حضور القلب.
 - قراءة القرآن بتدبر وتفهم لمعانيه وما أريد منه.
 - التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.
 - تذكُّر ما وَرَدَ في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم.
 - مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.
- فمن هذه الأسباب وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.
- وملاك ذلك كله أمران:
- استعداد الروح لهذا الشأن،
- وانفتاح عين البصيرة.
- وبالله التوفيق. ⁽⁷⁸⁾

منزلة الذكر

قال الناظم رَحْمَةُ اللَّهِ:

وَهُمُ الَّذِينَ قَدَّ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَخْيَانِ

ذكر في هذا البيت أن هؤلاء القوم من حُبِّهم لله جل وعلا، أكثروا من ذكره سبحانه، لأنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ.

قال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحبَّ شيئاً إلا أكثرت ذكره.

وقال فتح الموصلي: المحب لله لا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال ذو النون: من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر، قذف الله في قلبه نور الاشتياق.⁽⁷⁹⁾

فالمُحِبُّونَ إِذَا نَطَقُوا نَطَقُوا بِالذِّكْرِ، وَإِذَا سَكَتُوا انشغلوا بالفكر.⁽⁸⁰⁾

وفي هذا يقول ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ⁽⁸¹⁾: «لو صحَّت محبتك لاستوحشت ممن لا يذكرُك بالحبيب. واعجباً لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه، فلا يذكره إلا بمذكَّر! أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب». انتهى.

والذكر: إعظامُ الله وحُضُورُهُ في القلب واللسان أو أحدهما.⁽⁸²⁾

79- انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 680).

80- «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملاء الأعلى» (1/ 154-155) ضمن «مجموع الرسائل».

81- «الفوائد» (ص 97).

82- من تعليق شيخنا العصيمي على رسالته «الباقيات الصالحات من الأذكار بعد الصَّلوات» (ص 3).

منزلة الذكر منزلة شريفة عظيمة وهي برهان من براهين المحبة. ولهذا أردف الشيخ منزلة المحبة وما قبلها من الخوف والرجاء بهذا البيت، فقال:

وَهُمُ الَّذِينَ قَدَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]... في آيات كثيرة.

ومنزلة الذكر، هي: منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائما يترددون.^(٨٣)

قال ابن سعدي^(٨٤): «ومن أعظم مقويات الإيمان ومغذياته: اللّهجُ بذكر الله والإكثار من دعائه والإنابة إليه في السراء والضراء...». انتهى.

وفي «فتاوى اللجنة الدائمة» (170 / 24): «ذكر الله سبحانه عام، يشمل: فعل الأوامر، واجتناب النواهي، ويشمل: التسبيح والتهليل والتحميد جهراً وسراً، وقراءة القرآن ونحو ذلك مما شرعه الله من الأقوال والأفعال، وليس منه الطبل والتصفيق والذكر الجماعي، بل ذلك بدعة لا يجوز». انتهى.

83 - «مدارج السالكين» (2 / 138).

84 - «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 61).

وفي سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَّ أَعْيُنِ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّهُتُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانَكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ». (85)

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَجَبْنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُجَاهِدَهُ، فَلْيَكْثِرْ ذِكْرَ اللَّهِ». (86)

قلت: وفيه إشارة إلى تعدد أبواب الخير، وأن الله يفتح على عباده بما شاء كيف شاء، سبحانه. والأحاديث في باب الذكر كثيرة (87).

شكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه، فقال: أدنه من الذكر. وقال: القلوب الميتة تحيا بالذكر، كما تحيا الأرض الميتة بالقطر (88).

بِذِكْرِ اللَّهِ تَرْتَاحُ الْقُلُوبُ وَدُنْيَانَا بِذِكْرَاهُ تَطِيبُ
قال عبد الله بن عون: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللَّهِ دَوَاءٌ».

85- رواه أحمد (226/29) رقم 17680، والترمذي (457/5) رقم 3375، وابن ماجه (707/4) رقم 3793، وابن حبان في صحيحه (96/3) رقم 814، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1491) و«الكلم الطيب» (رقم 3).

86- رواه الطبراني والبيزار، واللفظ له، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1496).

قلت: وهذا الحديث هو الذي ختم به ابن رجب زيادته على «الأربعين النووية».

87- انظر على سبيل المثال فصلا في: «فضل الذكر والحث عليه» في كتاب «رياض الصالحين» للحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ، وفصلا في: «الترغيب في الإكثار من ذكر الله تعالى سر وجهها والمداومة عليه، وما جاء فيمن لم يكثر ذكر الله تعالى» في كتاب «صحيح الترغيب والترهيب» (2/202-207).

88- «لطائف المعارف» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ (ص 19).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصغرى»⁽⁸⁹⁾ التي أوصى بها أبا القاسم التجيبي المغربي: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض: فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة...». ثم ذكر الأدلة على ذلك، وختّم بقوله: «والدلائل القرآنية والإيمانية بَصراً، وخبراً، ونظراً، على ذلك كثيرة». انتهى.

واعلم أنّ صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر⁽⁹⁰⁾.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لأن أسبح لله تعالى تسيحات أحب إلى من أنفق عددهن دنانير في سبيل الله ﷻ». وقال عبيد بن عمير: «تسيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري ذهباً». وقال بعض السلف: «ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك».

قام رجل إلى ابن المبارك في جنازة فسأله عن شيء، فقال له: «يا هذا سَبِّح، فإنَّ صاحب السرير مُنِعَ من التسيح»⁽⁹¹⁾.

قال كعب: من أكثر ذكر الله برئ من النفاق.

ويشهد لهذا المعنى أن الله وصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، فمن أكثر ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا خُتِمَت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله، وأن لا يُلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وإن من أهاه ذلك عن ذكر الله فهو من الخاسرين⁽⁹²⁾.

89- «الفتاوى» (10/660).

90- «الوابل الصيب» لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (ص 41).

91- «أهوال القبور» لابن رجب رَحِمَهُ اللهُ (ص 16).

92- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ اللهُ (ص 680).

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

والمصنف أشار إلى أن الذكر يكون في كل وقت، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

[في السِّرِّ والإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ]

أي أنهم يذكرون الله تعالى في السِّرِّ والعلَن، وفي كل حين أي: زمن، وهذه هي حال المؤمنين
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهكذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكُرُ الله على كل أحيانه»⁽⁹³⁾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِيًا ذَكَرْتُكَ خَالِيًا، وَإِذَا ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ خَيْرٌ مِنَ الَّذِينَ تَذْكُرُنِي فِيهِمْ»⁽⁹⁴⁾.

قال عبد الله بن أبي الهذيل: «إن الله ليحب أن يُذكر في السوق، ويجب أن يذكر على كل حال، إلا في الخلاء».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على هذا الأثر⁽⁹⁵⁾: «ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه الحالة وهي من أجل الذكر، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها،

93- رواه البخاري -مُعلِّقاً- كِتَابُ الْأَذَانِ، بَابُ: هَلْ يَتَّبِعُ الْمُؤَدِّنُ فَاهُ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَهَلْ يَلْتَفِتُ فِي الْأَذَانِ،

ومسلم كِتَابُ الْحَيْضِ، بَابُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالِ الْجَنَابَةِ وَغَيْرِهَا، رَقْم (373 / 17).

94- رواه البزار، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم 1489).

واللائق بهذه الحال التَّقَنُّعُ بثوب الحياء من الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له لو بقي فيه لقتله». انتهى.

القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات

أجاب عن هذا الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحْمَةُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ⁽⁹⁶⁾: «إذا واطب على الأذكار المأثورة»⁽⁹⁷⁾، المثبتة صباحًا ومساءً في الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهارًا، وهي مبينة في كتاب: «عمل اليوم والليلة»، كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، والله أعلم. انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصغرى»⁽⁹⁸⁾: «وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل، والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد، إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بـ«عمل اليوم والليلة».

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله: «لا إله إلا الله». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله.

ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقه، أو يُفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله. انتهى.

96- انظر «كتاب الأذكار» للنووي رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 12).

97- أي ما أثر من الذكر عن الشارع. قاله ابن علان رَحْمَةُ اللَّهِ.

98- «الفتاوى» (10/660).

وقد ذكر ابن رجب⁽⁹⁹⁾ أنَّ مجالسَ الذكر لا تختص بالمجالس التي يُذكر فيها اسمُ الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه، بل تشمل ما ذُكر فيه أمرُ الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكرُ أنفعَ من ذلك، لأنَّ معرفةَ الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كل مسلم، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذكرُ الله باللسان، فإن أكثره يكون تطوعاً، وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة.

ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة

ذكر الله جل وعلا هو ملاك الأمر، وهو العبادة التي لا تنقطع حتى في الجنة، فإن أهل الجنة يلهمون التسبيح والذكر كما يلهمون النفس. وهذه عبادة تلذذ، لا عبادة تكليف، فإن التكليف انقطع بدخول الجنة.

«فالأعمال كلها يفرغ منها، والذكر لا فراغ له ولا انقضاء؛ والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه وعليه بيعث»⁽¹⁰⁰⁾.

أَحْسِبْتُمْ أَنَّ اللَّيَالِيَّ غَيَّرَتْ عَهْدَ الْهَوَىٰ لَا كَانَ مَنْ يَتَغَيَّرُ
يَفْنَى الزَّمَانَ وَلَيْسَ يَفْنَى ذِكْرُكُمْ وَعَلَىٰ مَحَبَّتِكُمْ أُمُوتٌ وَأُخْشَرُ

وهاهنا فائدة لطيفة شريفة ذكرها الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ فِي «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» - وهي رسالة عظيمة في هذا الباب -، قال: «فإن أعلى نعيم في الجنة ما يحصل فيها من معرفة الله ومشاهدته، فإن علم اليقين يصير هناك عين اليقين، وتتجدد معرفة عظيمة لم تكن موجودة قبل ذلك؛ بل ولم تخطر على قلب بشر، وكذلك توحيد أهل الجنة ودوام ذكرهم هو من أكمل لذاتهم، ولذلك يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس.

قال ابن عيينة: «لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا».

وكذلك تَرْتُمُّهُمْ بِالْقُرْآنِ وَسَمَاعِهِ، وَأَعْلَاهُ سَمَاعُهُ مِنْ اللَّهِ ﷻ، فأين هذا من تلاوة أهل الدنيا وذكرهم؟ وأما سائر العبادات فما كان منها فيه مشقة على الأبدان، فإن أهل الجنة قد أسقط ذلك عنهم؛ وكذلك ما فيه نوع ذل وخضوع كالسجود ونحوه.

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصل بها لأهل المعرفة في الدنيا، فإنه يحصل لهم في الجنة أضعافا مع راحة الجسد من مشقة التكاليف التي في الدنيا، فتجتمع لهم راحة القلب والبدن على أكمل الوجوه.

وهذا مثل الصلاة، فإن العارفين في الدنيا إنما يتنعمون بها فيها من المناجاة وآثار القرب، وما يرد عليهم من الواردات في تلاوة الكتاب، ونحو ذلك من نعيم القلوب، وربما يستغرقون به عن الشعور بتعب الأبدان، فهذا القدر الذي حصل لهم به التنعم في الدنيا يتزايد في الجنة بلا ريب، لا سيما في أوقات الصلوات؛ فإن أكملهم من ينظر إلى وجه الله ﷻ كل يوم مرتين، بكرة وعشية، في وقت صلاة الفجر وصلاة العصر، وإلى ذلك أشار النبي بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقب ذكره رؤية الرب سبحانه في حديث جرير البجلي.

فالنعيم الحاصل لأهل الجنة بالرؤية والمخاطبة في هذين الوقتين أكمل مما كان حاصلًا في الدنيا، وكذلك صلاة الجمعة فإنهم يجتمعون في وقتها في يوم المزيد ويتجلى لهم سبحانه ويحاضرهم محاضرة.

فتبين بهذا أن نعيم الجنة أكمل من نعيم الدنيا مطلقا، وسواء في ذلك نعيم الأبدان بالأكل والشرب والجماع، ونعيم القلوب والأرواح بالمعارف والعلوم والقرب والاتصال والأنس والمشاهدة.

فظهر بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ١٨٩]، هو على ظاهره من غير حاجة إلى تأويل ولا تكلف؛ فإن كثيرا من المفسرين فسروا الحسنة بكلمة التوحيد والجزاء عليها بالجنة، ثم استشكلوا تفضيل الجنة على التوحيد، وبما ذكرناه يزول الإشكال.

ويتبين أن التوحيد الذي في الجنة أكمل من التوحيد الذي في الدنيا، وهو جزاء له، وكذلك المعرفة والمحبة والشوق أيضا...»⁽¹⁰¹⁾. انتهى.

ومن لطيف ما ذُكِرَ عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «ما يمنع أحدكم يكون جالسا، أن يقول للملك الذي يكتب، اكتب يرحمك الله». ثم يُسَبِّح، ويذكرُ الله، فيغتتم الأوقات بأفضل الطاعات.

فإذا كنت خاليا، فلتصرف الوقت في ذكر الله، فإن الذكر غرس الجنة.

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة، أفاض في ذكرها والتدليل عليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى في كتابه «الوابل الصيب من الكلم الطيب»⁽¹⁰²⁾، حتى ذكر منها نحوا من ثمانين فائدة، فليراجع فإنه مفيد جدا، ولا يستغني عنه مسلم، بله طلاب العلم...

وللناظم العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ منظومة لطيفة بعنوان: «منهج الحق في العقائد والأخلاق»⁽¹⁰³⁾ ضمَّنها أبياتا في فضائل ذكر الله تعالى. وقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذه الأبيات في شرحه لهذه المنظومة، فقال⁽¹⁰⁴⁾: ولي من الأبيات:

وَكُنْ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ	فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَقْتٌ مُقَيَّدٌ
فَذِكْرُ إِلَهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا	يُزِيلُ الشَّقَا وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ
وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجَلًا	وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَسُ يَوْمًا يُشْرِدُ
فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ	بِأَنَّ كَثِيرَ الذُّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرَدٌ

101 - «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (1/ 231-233) ضمن «الرسائل» باختصار.

102 - (ص 41-94).

103 - وهي قصيدة دالية، شرحها الشيخ عبد الرزاق العباد البدر وفقه الله.

104 - انظر: شرح المصنف رَحِمَهُ اللهُ (ص 18-20).

وَوَصَى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهَهُ
 وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ آتَى لِنَصِيحَةٍ
 بِأَنْ لَا يَزُلْ رَطْبًا لِسَانِكَ هَذِهِ
 وَأَخْبَرَ أَنَّ الذُّكْرَ غَرَسَ لِأَهْلِهِ
 وَأَخْبَرَ أَنَّ الذُّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ
 وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرٌ أَنَّهُ
 وَيَنْهَى الْفَتَى عَنِ غَيْبَةٍ وَنَمِيمَةٍ
 لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ
 وَلَكِنَّا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا
 وَعَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ
 وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ
 تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ
 بِجَنَاتٍ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِينُ تُمْهَدُ
 وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُ
 طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمُرْشِدُ
 وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ
 بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نِعَمَ الْمُوَحِّدُ
 كَمَا قَلَّ مِنَّا لِإِلَهِ التَّعَبُّدُ
 وهذه الأبيات واضحة المعاني، والله الحمد.

ومما نبه عليه رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الذِّكْرِ إِلَّا أَنَّهُ يَقْرُبُكَ إِلَى اللَّهِ، وَبِنَهَاكَ
 عَنِ الْإِشْتِغَالِ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، لَكَانَ فِيهِ الْخَيْرُ الْعَظِيمُ.
 وَلَنْ تُرْغَمَ شَيْطَانُكَ بِمِثْلِ إِرْغَامِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، خَاصَّةً فِي الْخُلُوتِ. فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِخْتِلَاءِ
 بِالنَّفْسِ إِذَا لَمْ يَصْحَبْهَا ذِكْرُ اللَّهِ، حَارَتْ وَحَادَتْ بِكَ إِلَى الْوَسَاوِسِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ خَلَا
 بِهِ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّ لَمْ تَعْمَرْ وَقْتَكَ بِالطَّاعَةِ، شَغَلَكَ هُوَ بِالْوَسَاوِسِ الَّتِي تَضُرُّ بَدِينَكَ وَدُنْيَاكَ،
 وَالنَّفْسُ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا شَغَلَتْكَ.

والواقع أوضح شاهد على ما ذكرنا. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فعل الطاعة وترك المعصية

بعد أن ذكر منزلة الذكر، قال رَحِمَهُ اللهُ:

يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِكِ بِفِعْلِهِمْ طَاعَاتِهِ وَالتَّارِكِ لِلْعِصْيَانِ

فهم في سيرهم يتقربون إلى الله مَلِكِهِمْ⁽¹⁰⁵⁾ بأمرين:

- بفعل الطاعة،

- وترك المعصية.

وهما ملاك الأمر، فالتقوى كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى⁽¹⁰⁶⁾: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حَرَّمَ اللهُ، وأداء ما افترض الله، فمن رُزِقَ بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير».

وقال الحسن: «المتقون: اتقوا ما حَرَّمَ اللهُ عليهم، وأدّوا ما افترض الله عليهم».

قال سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ: «الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكّره، ومن لم يُطعهُ فليس بذاكر، وإن أكثر التَّسْبِيحَ وتلاوة القرآن»⁽¹⁰⁷⁾.

105 - فالله مالِكِ مَلِكِ مَلِكِ، له الملك كُله سبحانه.

106 - «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ اللهُ (ص 247).

107 - «صفة الصّفة» لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ (2/45). وانظر: «فتح الباري» (13/675) عند شرح آخر حديث من البخاري، وفيه أن ابن بطال قال: «هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين، والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، فلا تظن أن من أدمن الذكر وأصر على ما شاء من شهواته وانتهك دين الله وحرمانه أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح». انتهى.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، أي: الطاعة والذل والخضوع له دائما
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال ذلك جماعة من السلف.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ^(١٠٨): «أفضل ما استجلبت به محبة الله ﷻ فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ
وَتَرْكُ الْمَحْرَمَاتِ». انتهى.

وقال عزَّ من قائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١١٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١١٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٥].

فمن كان مقتصرًا على الفرائض، ولكنه مُراعٍ لحدود الله جل وعلا، خيرٌ من الذي يُكثر من
النوافل ولكنه يُصرُّ على المعاصي. فالعبد لن يسير إلى الله جل وعلا بمثل فعل الطاعة وترك
المعصية، لأنها ملاك الأمر.

لا ولاية ولا كرامة إلا بلزوم طريق الاستقامة

فرأس الفلاح هو امتثال الأمر وترك النهي. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا
وَأَسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٧-٧٨﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وعن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ
أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِيمُ»^(١٠٩).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ^(١١٠): «والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من
غير تعريج عنه يَمَنَّةً ولا يَسْرَةً، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك
المنهيات كلها كذلك». انتهى.

وكان الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يُشير إلى أن من لم يستقم على شرع الله جل وعلا ليس
وليا لله، وليس سائرا إلى الله جل وعلا السير الذي يبلغه المقصد.
فإن من غلاة الصوفية من قال: إذا بلغت درجة اليقين، سقطت عنك التكاليف. فأراد الشيخ
بهذا البيت أن بين أن السائر إلى الله لا ينقطع عن فعل الطاعة وترك المعصية إلى أن يموت.

109- رواه أحمد (141/24) رقم 15416، وابن حبان في صحيحه (221/3) رقم 942. قال الشيخ
الألباني: (صحيح)، انظر حديث رقم: 4395 في صحيح الجامع. ورواه مسلم بلفظ «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ،
فَاسْتَقِيمُ» رقم (38/62).

110- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 324).

فمن ظن أنه يصل إلى الله جل وعلا بغير هذا الطريق، فإنه كافر، لأنه خالف الكتاب والسنة، بل أنكر الكتاب والسنة اللذين يثان على فعل الطاعة وترك المعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ⁽¹¹¹⁾: «مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ». انتهى.

ولذلك ذكر العلماء أن من ظن أنه تسقط عنه التكليف يوما من الأيام أنه كافر بالاتفاق، وهو زنديق من الزنادقة.

وهذا الأمر وقع من بعض المتصوفة عيادًا بالله تعالى من هذا الكفر.

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند قول الله جل وعلا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ

﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩]:

«ويستدل بهذه الآية الكريمة - وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ - على أن

العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلح بحسب حاله...

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة⁽¹¹²⁾، فمتى وصل

أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء ﷺ كانوا

هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع

هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين

111 - «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 20).

112 - قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في «أضواء البيان» (3/ 140): «إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة،

وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين...». انتهى.

هاهنا الموت⁽¹¹³⁾، كما قدمناه. والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم وحسبنا الله ونعم الوكيل. انتهى.

وقد عدَّ العلماء رحمهم الله من نواقض الإسلام، وقواطع الملة: «مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسَعُهُ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَسِعَ الْخَضِرَ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ كَافِرٌ».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ⁽¹¹⁴⁾: فمن ادعى أنه مع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالخضر مع موسى، أو جَوَّزَ ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليشهد شهادة الحق. فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية⁽¹¹⁵⁾، فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه. وهذا الموضوع مقطوع ومفروق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم فحرك تره. انتهى. ونقل القاضي عياض اليَحْصِيبي المالكي الإجماع على كفر من اعتقد ذلك، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ⁽¹¹⁶⁾: «وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من قال من بعض المتصوفة: إن العبادة وطول المجاهدة إذا صَفَّتْ نفوسهم أَفْضَتْ بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم، ورفع عهد الشرائع عنهم». انتهى.

113 - قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم. قال الحسن: لم يجعل الله لعبادة المؤمنين أجلا دون الموت. انتهى من «بدائع التفسير» (108/2).

114 - انظر: «مدارج السالكين» (2/223-224).

115 - انظر: «مجموع الفتاوى» (10/248-249).

116 - انظر: «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» (2/479) بتصرف يسير.

المداممة على النوافل بعد الفرائض

ثم ذكر الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى تفصيل هذا، فقال:

فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ مَعَ رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ وَالنَّقْصَانِ

فالتطاعة عندهم إما فرض أو نفل. والفرض: ما أمر به الشارع على وجه الإلزام، والنفل: ما أمر به الشارع لا على وجه الإلزام.

قال ابن تيمية⁽¹¹⁷⁾: «ولا يتقرب وليُّ الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله». انتهى.

وقال العلامة ابن سعدي في مختصر له في «أصول العقائد الدينية»⁽¹¹⁸⁾، حاكيا طريقة أهل السنة في العمل: «وأما طريقهم في العمل فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام بعقائد الإيمان التي هي أصل العبادات وأساسها، ثم يتقربون له بأداء فرائض الله المتعلقة بحقه وحقوق عباده مع الإكثار من النوافل وبترك المحرمات والمنهيات تعبدًا لله تعالى». انتهى.

والنفل مهمٌّ، ولكنه دون الفرض، لأن الفرض يستحقُّ صاحبه العقاب عند الترك، أما النفل فإن صاحبه ليس معرَّضًا للوعيد عند الترك.

وههنا أمر مهم نبه عليه الشاطبي رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى في «الموافقات»⁽¹¹⁹⁾، وهو أن: «المندوب لا يعاقب على تركه من جهة الجزء، أما من حيث الكل فإنه يأخذ حكم الواجب، فالإخلال به مطلقا كالإخلال بالواجب». انتهى.

117- انظر: «مجموع الفتاوى» (10/248-249).

118- وقد منَّ الله علي، وشرحت هذا المختصر المفيد، بشرح مُوسَّع، سَمَّيْتُهُ: «التعليقات السننية والفوائد البهية شرح مختصر في أصول العقائد الدينية».

119- الموافقات (1/115، 2/337).

وجهور الأصوليين على أن المندوب مأمور به، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ⁽¹²⁰⁾، معلقاً على حديث الأعرابي الذي سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفرائض: «في هذا الحديث دلالة على جواز ترك التطوعات، لكن مَنْ دَومَ على ترك السنن كان نقصاً في دينه فإن كان تركها تهاوناً بها ورغبة عنها كان ذلك فسقاً، يعني لورود الوعيد عليه حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وقد كان صدر الصحابة وَمَنْ تَبِعَهُمْ يواظبون على السُّننِ مواظبتهم على الفرائض، ولا يفرقون بينها في اغتنام ثوابها.

وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها ووجوب العقاب على الترك ونفيه، ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام، فاكتمى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال لثلا يثقل ذلك عليهم فيمَلُّوا، حتى إذا انشحت صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهلت عليهم». انتهى.

قلت: وهو كلام نفيس جداً، فرحمه الله رحمة واسعة.

وقال بعض أهل العلم⁽¹²¹⁾: «الفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الأمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل، والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفاً من

120 - انظر: «فتح الباري» (3/ 336).

121 - انظر: «فتح الباري» (11/ 417)، ولا أدري: هل هو من كلام الحافظ ابن حجر أم من كلام الطوفي،

العقوبة ومؤدّي النفل لا يفعله إلا إثارة للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته». انتهى

قال ابن القيم⁽¹²²⁾: «الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح». انتهى.

وهذا الذي ذكره الناظم رَحِمَهُ اللهُ من ذكر النوافل بعد الفرائض، هو مصداق الحديث الإلهي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ»⁽¹²³⁾.

ونبه العلامة شمس الدين ابن القيم على نكتة بديعة في قوله: «بي يسمع وبى يبصر وبى يببطش»، فقال رَحِمَهُ اللهُ⁽¹²⁴⁾: «وتأمل كيف قال: «بي يسمع وبى يبصر وبى يببطش» ولم يقل: «فلى يسمع ولى يبصر ولى يببطش»، وربما يظنّ الظانّ أنّ اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدلّ على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخصّ من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء هاهنا لمجرد الاستعانة. فإنّ حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنّما هي بمعونة الله لهم وأنّ الباء هاهنا للمصاحبة: إنّما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه، كقوله في الحديث الآخر «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه». وهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]... فهذه الباء مفيدة

122 - «الفوائد» (ص 98).

123 - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم 6137.

124 - «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص 188)، ويسمى أيضا «الداء والدواء».

لمعنى هذه المعية دون اللام، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمانا. فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير، ويقرب كل بعيد. وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم. فلا هم مع الله، ولا غم مع الله، ولا حزن مع الله. وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه». انتهى.

«قال بعضهم: المحب لله طائر القلب كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل، دأبا وشوقا. وأنشد بعضهم:

وَكُنْ لِرَبِّكَ ذَا حُبٍّ لِيَتَّخِذَهُ
إِنَّ الْمُحِبِّينَ لِلْأَحْبَابِ خُدَّامٌ

ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكير وتدبر وتفهم.

قال خباب بن الأرت لرجل: تقرب إلى الله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه»⁽¹²⁵⁾.

وقال السري السقطي رحمه الله: «انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بالله بأربع خصال. فأما من انقطع عن الله فإنه يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض، والثاني عمل بظاهر الجوارح لم يواطىء عليه صدق القلوب. وأما الذي اتصل به المتصلون فبلزوم الباب، والتشمير في الخدمة، والصبر على المكاره، وصيانات الكرامات»⁽¹²⁶⁾.

125 - «جامع العلوم والحكم» (ص 560).

126 - «صفة الصفوة» (1/499).

وأختم هذا الفصل، بهذه الكلمة الجميلة للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ⁽¹²⁷⁾: «المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أحل بها، كما قال بعض الأكابر: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور». انتهى.

الحذر من العجب

قال المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ:

[مَعَ رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ وَالتَّقْصَانِ]

فهم مع ما منَّ الله به عليهم من فعل الفرائض، وتكميلها بالنوافل، لم يُصِبْهم العُجْبُ والغُرور، بل يرونَ أَنفُسَهُم مقصرين في حق الله تعالى.

قال المصنف في شرحه ⁽¹²⁸⁾: «فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العُجْب الذي يُبْطِلُ الأعمال ويُفسدُها». انتهى.

«وقد قيل: علامة رضى الله عنك، إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قبلك، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته...» ⁽¹²⁹⁾.

قال أبو الحسن علي بن محمد المزين الصغير رَحْمَةُ اللَّهِ: «المُعْجَبُ بعلمه مستدرجٌ، والمستحسن لشيء من أفعاله مكمور به» ⁽¹³⁰⁾.

قيل لسعيد بن جبير: من أعبدُ الناس؟ قال: «رجلٌ اجترَحَ من الذُّنُوبِ، فكلما ذَكَرَ ذنوبَهُ احْتَقَرَ عَمَلَهُ» ⁽¹³¹⁾.

ومن وصايا بعض السلف: «احذر أن ترى عملك لك، فإن رأيتَه لك كنتَ ناظراً إلى ما ليس لك» ⁽¹³²⁾.

وقال مسروق رَحْمَةُ اللَّهِ: «بحسب المؤمن من الجهل أن يُعْجَبَ بعمله، وبحسب المؤمن من

128 - شرح المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 22).

129 - انظر: «مدارج السالكين» (1/439).

130 - «صفة الصفوة» (1/443).

131 - نفس المصدر (2/45).

132 - نفس المصدر (1/550).

العلم أن يخشى الله»⁽¹³³⁾.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكِرُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ». قَالَ: قُلْنَا: بَلَى فَقَالَ: «الشَّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»⁽¹³⁴⁾.

يقول الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ⁽¹³⁵⁾: «والدَّجَالُ ممكن أن يعرف بعلامات، لكن الشَّرْكُ الْخَفِيُّ أشد منه، لأنَّه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه النَّاسُ، لكن قد يُعرف بعلامات تظهر على صاحبه». انتهى.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ⁽¹³⁶⁾: «إنما كان الرياء كذلك لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه». انتهى.

وفي هذا يقول العلامة المَعْلَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ⁽¹³⁷⁾: «المؤمن وإن خلصت نيته في نفس الأمر، لا يستطيع أن يستيقن ذلك من نفسه». انتهى.

وللإعجاب أسباب⁽¹³⁸⁾: فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا، والتملق خديعة وملعبا، فإذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم...

133 - «صفة الصفة» (2/15).

134 - رواه ابن ماجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (2/1406) رقم 4204 قال الشيخ الألباني: (حسن)، انظر حديث رقم: 2607 في صحيح الجامع.

135 - «شرح كتاب التوحيد» (ص 119).

136 - «تيسير العزيز الحميد» (ص 459).

137 - «القائد إلى تصحيح العقائد» (ص 33).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المدحُ ذبحٌ.

فإن للنفس ميلا إلى حب الثناء، وسماع المدح.

وقد قال الشاعر:

يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزًا وَمُقَصِّرًا حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

فقل مدح كان جميعه صدقا، وقل ثناء كان كُله حقا. ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا

ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه، وتنزيها عن التملق به.

وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه، إما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن

فضله، وأخلوا بحقه، وإما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء، فيعتقدون أن قوله حق

متبع، وصدق مستمع...

وقد قال بعض الشعراء:

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يَمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنَّ أَعْمَالَ تَذُمُّ وَتَمْدَحُ

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرائي المحاسن

والعيوب، على ما يُنبهونه عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها. فإنهم أمكن نظرا،

وأسلم فكرا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساوئه عوضا عن تصديق المدح فيه ... انتهى.

وأما مَنْ قَوِيَ وَتَمَّ إِخْلَاصُهُ، وَصَغُرَ النَّاسُ فِي عَيْنِهِ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ مَدْحُهُمْ وَذَمُّهُمْ، فَلَا بَأْسَ

بإظهار محاسنه للناس، لأن الترغيب في الخير خير، وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم

كانوا يظهرن شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقنّدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: «لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت»⁽¹³⁹⁾.

وفي «الآداب الشرعية»⁽¹⁴⁰⁾ لابن مفلح الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ فوائده عظمة في هذا تحت عنوان: «فصل في تزكية النفس المذمومة، ومدحها بالحق للمصلحة أو شكر النعمة».

قال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ اللهُ في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني بقوله ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: 55]: «فيها دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحذور». انتهى.

قال أبو بكر بن عيَّاش: نظرت إلى أقرأ الناس فلزمت عاصمًا، ثم نظرت إلى أفضه الناس فلزمت مغيرة، فأين تجد مثلي؟

وقال رَحِمَهُ اللهُ لما حضرته الوفاة وبكت ابنته: يا بنيّة، لا تبكين، أتخافين أن يعذبني الله وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة؟⁽¹⁴¹⁾

وفي ترجمة أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: سلوني، فوالله لئن فقدتموني لتفقدنّ رجلا عظيما. قلت: والكلام في هذا كثير قديما وحديثا، وهو على خلاف الأصل، ولا يصلح لكل الخلق، بل هو لأهل الصدق والإخلاص، مع رُجحان مصلحة المدح في تلك المواطن. والله الموفق وحده.

139 - «مختصر مناهج القاصدين» لابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللهُ (ص 286 وما بعدها).

140 - (4/116).

141 - انظر: «صفة الصفوة» (2/96).

منزلة الصبر

ذكر الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هنا بيتا في منزلة الصبر، وكأنه رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أراد أن يبين أن هذه المنازل التي مرّت، مِنْ فِعْلِ الطاعة، وترك المعصية، وفعل الفرض، ثم النفل، لا تكون إلا بالصبر. فمن ظن أنه يسير ولا يتعب ولا ينصب، فإنما يطلب المحال. فإن هذه الدار دارُ تعب ونصب.

ولهذا لما بشر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالجنة، قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمَنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبٍ»⁽¹⁴²⁾.
النَّصَبُ: المشقَّةُ والتَّعَبُ.

لأن هذه الدار دار تعب ونصب. ولما سئل الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: متى الراحة؟

قال: الراحة في الجنة. وصدق رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فإن الراحة لا تنال بالراحة.

قال شمس الدين ابن القيم⁽¹⁴³⁾: «أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة...». انتهى.

مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ البِدَارِ فَمَا تَرَاهُ يَحْصِدُ إِلَّا الهَمَّ والنَّدَمَا

فمن أراد الراحة فينبغي له أن يتعب.

فَاتَعَبَ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الْأَذْنَى تَجِدُ رَاحَاتِهِ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

142 - رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رقم

3609، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم 2432.

143 - «مدارج السالكين» (1/518).

ومن بدائع ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ⁽¹⁴⁴⁾: «الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيمٌ ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آتات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير». انتهى.

قلت: ولهذا، يجوز للمسافر الذي لم يجمع الإقامة أن يترخص برخص السفر من قصرٍ وفطرٍ وغيرهما، لأنه لا يتنعم على وجه التمام ما لم يستقر.

وهذه حال الدنيا، فإنها دار ممر لا دار مقر، تُراد لتعبّر ولا تُراد لتعمر، وقد قال الألبيري:

ولم تُخلق لتعمرها ولكن لتعبرها فجدد لما خلقتا

وفي «البخاري» قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحْمَةُ اللَّهِ⁽¹⁴⁵⁾: «فكُلُّ ساعة قابلة لأن تضع فيها حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً، ويقطع به قومك في السعادة باعاً أو ذراعاً، فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمى، فدع الراحة جانباً، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً». انتهى.

وما أجمل قول أبي يعلى الموصلي المحدث رَحْمَةُ اللَّهِ:

إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الْأَثَرِ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ تَطَلَّبَهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

144 - «الفوائد» (ص 229)، وانظر: «طريق المهجرتين» (ص 189-191)، فله كلام رائع في السفر إلى الله.

145 - «رسائل الإصلاح» (1/84).

وفي القرآن: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فالله جل وعلا يبشر هؤلاء الذين صبروا أنفسهم، والبشرى أن ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].
قال السعدي رَحْمَةُ اللَّهِ:

صَبَرُوا النَّفْسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ

والصبر: هو الحبس، لغة.

وفي الشرع: حبس النفس على حكم الله.

وحكم الله نوعان: حكم شرعي وحكم قدري.

والحكم الشرعي أمران: فعل طاعة وترك معصية.

فيكون الصبر على الحكم الشرعي بحبس النفس على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحكم القدري: فالصبر عليه يكون بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي،

والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب⁽¹⁴⁶⁾.

قال ابن القيم⁽¹⁴⁷⁾: «فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام بها العبد كما ينبغي

انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبا.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَبْتَلِهِ لِيَهْلِكْهُ، وإنما ابتلاه لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَعِبُودِيَّتَهُ، فإن الله تعالى

على العبد عبودية في الضراء، كما له عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له

عبودية فيما يحب. وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في

المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى». انتهى.

146 - انظر تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7)، وراجع لهذا «القول المفيد» لابن

عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ (2/ 36).

147 - «الوابل الصيب» (ص 3).

وقال الحسن البصري: «كانوا يتساوون في وقت النعم، فإذا نزل البلاء تباينوا».⁽¹⁴⁸⁾

وقال ابن الجوزي⁽¹⁴⁹⁾: «والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء». انتهى.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَلَا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»⁽¹⁵⁰⁾.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا الصَّبْرَ».

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس له».

والشكوى إنما تكون لله، ولا بأس أن تشكو إلى المخلوق ولكن على سبيل المواساة، لا تشكو من الله للمخلوق، فهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه⁽¹⁵¹⁾. ولهذا قال القائل:

وَإِذَا عَرَّتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا صَبَرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكُوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

والشكوى إلى الله ﷻ لا تنافي الصبر. فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ بالصبر الجميل. والنبي إذا

وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]... وإنما يُنَافِي الصَّبْرُ شكوى الله، لا الشكوى إلى الله⁽¹⁵²⁾.

148 - انظر: «اليقين» لابن أبي الدنيا (رقم 13).

149 - «صيد الخاطر» (ص 200).

150 - رواه البخاري كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ الإِسْتِعْفَافِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، رقم 1400، ومسلم كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ وَالصَّبْرِ، رقم (1053 / 124)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

151 - انظر: «فائدة: في بيان جهل من يشكو إلى الناس» في كتاب «الفوائد» (ص 108).

152 - انظر: «مدارج السالكين» (1 / 513)، و«الروح» لابن القيم (ص 319).

وقسم الإمام ابن القيم مراتب الشكوى إلى ثلاث مراتب، فقال⁽¹⁵³⁾:

«أخسها: أن تشكو الله إلى خلقه.

وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه.

وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه».

أتظن أن ابن آدم يرحمك أكثر من رحمة الله جل وعلا بك؟ بئس الرجل من يظن هذا. لما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك المرأة التي أخذت ابنها بعد فراق، قال -عليه الصلاة والسلام-: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ». قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا»⁽¹⁵⁴⁾.

وبعض الناس إذا عامل ربه، وكأنه ينسى رجاء الله جل وعلا. وكما مر بيانه، ينبغي أن نستحضر الرجاء والطمع في فضل الله ورحمته، فإن رحمته سبقت عذابه، ولكن ذلك الرجاء إذا لم يقارنه خوف الله تعالى، هلك المرء برجائه.

والصبر واجب بالاتفاق⁽¹⁵⁵⁾، ويحتاج مجاهدة، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فاصبر في نفسك، ولازم الصبر، وداوم عليه، وغالب غيرك في الصبر، تكن من المفلحين. فالصبر يحتاج مجاهدة. ولا تظن أن هذه المنازل التي سيذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى إنها يصل

153 - انظر: «فائدة في بيان جهل من يشكو إلى الناس» في كتاب «الفوائد» (ص 108)، وفصلاً نافعا في

«كراهة الشكوى من المرض والضرير واستحباب حمد الله قبل ذكرهما» في «الآداب الشرعية» (2/ 289).

154 - رواه البخاري كتاب الأدب، باب رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، رقم 5653، ومسلم كتاب التوبة،

باب فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، رقم 2754.

155 - «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 99).

إليها العبد بسهولة. ولا تظن أنك إذا وصلت إليها أو إلى بعضها تثبت عليها بسهولة. الثبات عزيز!!

إِنَّ الثَّابِتَ فِي الرِّجَالِ عَزَا وَيَغْنَمُ الرِّجَالُ مِنْهُ الْعِزَّ (156)

والعبد إذا لم يستعن بالله جل وعلا فإنه لا محالة هالك، لأنه لا غنى له عن الله تعالى طرفة عين. وفقر العبد إلى الله ﷻ أمر يجب أن يستظهره المرء دائما، ويستظهر ضعفه واستكانته إلى مولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فَقُرُّ الْقُلُوبِ إِلَى الْإِلَهِ صَرُورَةٌ يَا وَيْلَ قَلْبٍ بَاءَ بِالْحِرْمَانِ (157)

قال تعالى: ﴿ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَجِّحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]. أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء... قاله ابن كثير رحمه الله.

وما أجهل قول شيخ الإسلام ابن تيمية في أبيات بعث بها في آخر عمره إلى تلميذه ابن القيم عليها رحمة الله (158):

أنا الفقيرُ إلى ربِّ البريّاتِ أنا المُسَيِّكِينُ في مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أنا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي وَالْحَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعَ الْمَضَرَّاتِ

156 - من «قصيدة الهداية» لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله.

157 - من مطلع «منظومة المعاني الحسان في نصح أهل الإيمان» لشيخنا صالح العصيمي وفقه الله.

158 - انظر: «مدارج السالكين» (392/1). وقد يَسَّرَ اللهُ لي شرح هذه الأبيات في دروس مسجلة، ثم كُتِبَتْ وعلقتُ عليها، وخرَّجت في كتاب سمَّيته: «شذا العبير بشرح قصيدة ابن تيمية: أنا الفقير».

وليس لي دونه مؤلى يدبرني
 إلا بإذن من الرحمن خالقنا
 ولست أملك شيئاً دونه أبداً
 ولا ظهير له كي يستعين به
 والفقير لي وصف ذات لازم أبداً
 وهذه الحال حال الخلق أجمعهم
 فمن بغى مطلباً من غير خالقه
 والحمد لله ملء الكون أجمعه
 ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
 إلى الشفيع كما قد جافي الآيات
 ولا شريك أنا في بعض ذرات
 كما يكون لأرباب الولايات
 كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
 وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَّهُ آتِي
 فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
 ما كان منه وما من بعد قد ياتي

فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء. وأنه ممن لم يصح

له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه. (159)

والحاصل أن الصبرَ صعبٌ، لكنَّ عواقبه حسنةٌ، فإذا رأيت العواقب الحسنة، هانت عليك مصاعب الطريق.

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ
مُرٌّ مِنْ حَيْثُ صَعُوبَةُ الطَّرِيقِ، لَكِنَّهُ حُلُوٌّ مِنْ حَيْثُ النَتِيجَةُ الَّتِي تَنْتَظِرُ الْعَبْدُ بِسَبَبِهِ.

نكتة بديعة حول الصبر

قال ابن رجب عند شرح حديث: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»⁽¹⁶⁰⁾: «وأما الصبر فإنه ضياء، والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]...
ولما كان الصبر شاقا على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء». انتهى.

قال السري السقطي رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ، هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ»⁽¹⁶¹⁾.

فمن سار في طريق العبودية إلى لقاء الحبيب، فلا بد من مواصلة السير حتى يصل، فإن وَقَفَ فِي الطَّرِيقِ أَوْ رَجَعَ هَلَكًا، فَإِنْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ أَلَمُ السَّيْرِ، فَلْيَذْكَرْ رَاحَةَ الْوَصُولِ وَقَدْ زَالَ التَّعَبُ»⁽¹⁶²⁾.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁶³⁾: «مَنْ تَأَمَّلَ حَلَاوَةَ الْعَاقِبَةِ هَانَتْ عَلَيْهِ مَرَارَةُ الصَّبْرِ». وقال⁽¹⁶⁴⁾:

160 - «جامع العلوم والحكم» (ص 345).

161 - «صفة الصفوة» (1/ 499).

162 - انظر: «رسائل ابن رجب» (1/ 371).

163 - «الفوائد» (ص 63).

164 - نفس المصدر (ص 98).

«هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بِسَمْعِ الْمَلِكِ. من لآح له حال الآخرة، هانَ عليه فِرَاقُ الدنيا». انتهى.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁶⁵⁾: «التائق للعافية لا يبالي بمرارة الدواء». انتهى.

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁶⁶⁾: «من كَرُمَت عليه نفسه، هانَ عليه كُلُّ ما يَبْدُلُ في افتكاكها من النار». انتهى.

ولذلك كُلِّمًا حَدَّثَتَكَ نَفْسُكَ بِالضَّجْرِ وَالْقَلْتِ، حَدَّثَهَا أَنْتَ بِمَا يَنْتَظِرُهَا مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قبل الغزوات، يتذكرون الجنة وما فيها من النعيم المقيم، لأن ذلك مما يجدو المرء نحو بذل النفس في سبيل الله جَلَّ جَلَالُهُ.

فإنك إذا تذكرت ما ينتظرك هان عليك ما تبذله. وما الذي ستبذله؟ نفس؟ انظر ماذا ينتظرك من النعيم الذي ليس في مقابلة عملك، بل هو مُحَضُّ فضل الله على عباده. فإن الله جل وعلا منَّ على العبد أكثر بكثير مما يستحقه تَكْرُّمًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن بدائع ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁶⁷⁾: «والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودي، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول: سمعا لما قلت وطاعة. وأي شيء لنا فينا حتى نتكلم؟»

فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل، والخلود في النعيم، الذي لا ينفد.

لكن طريق الوصول يحتاج إلى صبر على المشقة...

فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين، لاح المنزل. والسرور السرور يا متوسطين، ضربت الخيم.

165 - «صيد الخاطر» (ص 298).

166 - «لطائف المعارف» (ص 395).

167 - «صيد الخاطر» (ص 235).

والفرح الكامل يا عارفين، قد تُلقيتم بالبشائر». انتهى.

وفي «تائية» أبي إسحاق الألبيري:

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْتَا
فَرَاغِهَا وَدَعَّ عَنْكَ الْهُوَيْنَى فَمَا بِالْبُطءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

وقال ابن الجوزي أيضا⁽¹⁶⁸⁾: «فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل، فإن لذة الراحة بالهوى

أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى». انتهى.

قال الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرٌ أَيَّامٍ كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ
يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وَخَلَّ عَنْهَا فَإِنَّ العَيْشَ قُدَّامِي

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وقال جلَّ في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ

الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

منزلة الرضا

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرَّضِيِّ فَهُمْ بِهَا قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانٍ

بعد منزلة الصبر، هناك منزلة أعلى درجة وهي: منزلة الرضا. والصبر واجب، والرضا

مستحب وليس بواجب على الصحيح.⁽¹⁶⁹⁾

قال عمر بن عبد العزيز: «الرضا عزيز، ولكن الصبر مَعْوَلُ الْمُؤْمِنِ».

وهذا بالنسبة للمصائب، وأما فعل العبد وهي الطاعات والمعاصي، فيجب الرضى بالطاعات

الواقعة منه ومن غيره ومحبتها، وكراهة المعاصي الواقعة منه ومن غيره...⁽¹⁷⁰⁾

والرضا: تَلَقَّى أَحْكَامَ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدْرِيَّةِ بِانْشِرَاحِ صَدْرٍ وَسُرُورِ نَفْسٍ.⁽¹⁷¹⁾

فإن قيل: ما الفرق بين الرضا والصبر؟

الجواب: «قال طائفة من السلف: إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها»⁽¹⁷²⁾.

169- وهو اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم، وانظر تفصيل المسألة في: «مجموع الفتاوى» (10/27 وما بعدها) و(10/383) و«فهارس الفتاوى» (36/662)، و«مدارج السالكين» (5/521 وما بعدها).

170- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 31)؛ وانظر: «فهارس مجموع الفتاوى» لابن تيمية (36/662).

171- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7)، وانظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (2/81) ضمن «مجموع رسائل ابن رجب»، حيث قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «والرضا يوجبُ انْشِرَاحَ الصَّدرِ وَسَعَتَهُ». انتهى.

172- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (2/81) ضمن «مجموع الرسائل»، ونقل كلامه سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (ص 451). وانظر: «صفة الصفوة» (1/427).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁷³⁾: «واعلم أنه لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم، فكثير ممن له أئين من وجع وشدة مرض، قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله». انتهى.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

[نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرَّضَى]

فالرضا من أعظم المنازل، ومن خشي الله جل وعلا وأتاب إليه وأظهر حاجته إليه، ووفق لتلك المنزلة العالية.

قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

فمن خشي الله جل وعلا فإنه حقيق بأن يوفق إلى تلك المنزلة.

قال النصر آبادي⁽¹⁷⁴⁾: «من أراد أن يبلغ محل الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه».

قال شيخ الإسلام معلقاً على هذه المقولة⁽¹⁷⁵⁾: «هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما

يرضى الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها، فإن الله يرضى عنه». انتهى.

وكما قلت من قبل: لا تظن أنك تصل إلى تلك المنازل بسهولة، فهي تحتاج منك صبرا،

ومجاهدة، ومرابطة، مع الاستعانة بالله جل وعلا. فمتى وصل العبد إلى هذه المنزلة، فهو في جنة

قبل جنة الآخرة.

173 - «تيسير العزيز الحميد» (ص 451).

174 - أو النصر آبادي، كما في طبعة محمد رشاد سالم لكتاب «الاستقامة» (2/ 72).

175 - «مجموع الفتاوى» (10/ 383).

[فَهُمْ بِهَا قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانٍ]

فإن من رضي بقضاء الله وقدره، فهو في جنة أي: حماية ومنعة من ضيق الصدر، وعذاب النفس، وسخط الرحمان، وفي أمان، في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽¹⁷⁶⁾: «ولذلك كان الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين». انتهى.

قال بعض السلف: «بالمعرفة هانت على العاملين العبادة، وبالرضا عن الله ﷻ في تدبيره زهدوا في الدنيا، ورضوا منها لأنفسهم بتقديره». ⁽¹⁷⁷⁾

ومن رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله. ⁽¹⁷⁸⁾

فائدة

ليس الرضى والمحبة كالرجاء والخوف، فإن الرضى والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه... ⁽¹⁷⁹⁾

ولكن هناك منزلة أعظم من الرضا، وهي منزلة الشكر. وهذا ما سيذكره الناظم فيما يأتي.

176 - «مدارج السالكين» (1/ 523). وقد اقتبس ابن القيم هذا من كلام السلف. انظر: «الرضا عن الله

بقضائه» لابن أبي الدنيا (رقم 13).

177 - «صفة الصفوة» (1/ 504).

178 - «الرضا عن الله بقضائه» لابن أبي الدنيا (رقم 15).

179 - «مدارج السالكين» (1/ 523).

منزلة الشكر

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

شَكْرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ

فالشكر منزلة أعظم من الرضا، وهي أن يشكر العبد ربه على ذلك البلاء الذي أصابه.

فالصبر واجب، والرضا مستحب، والشكر مستحب أيضا من باب أولى.

فالشكر هنا هو انشراح الصدر، مع الفرح بذلك البلاء. وهذا لا يكون إلا للكُمَّل من عباد

الله جل وعلا، ومن رحمة الله بخلقه أن لم يجعله واجبا عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ⁽¹⁸⁰⁾: «الصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ

الرَّضَى بِحُكْمِ اللَّهِ وَهُوَ مُسْتَحَبٌّ وَهُوَ الصَّحِيحُ. وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى الْمُصِيبَةِ، لِمَا يَرَى

مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ وَرَفَعِ دَرَجَاتِهِ...». انتهى.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

[شَكْرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ]

قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]،

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾

[لقمان: ٢٠]. فكل خير وكل نعمة فمن عنده سبحانه وتعالى. والاعتراف بتلك النعمة حق واجب

لله جل وعلا. والمخلوق مهما فعل لا يعدو أن يكون سببا، والفضل لله أولا وآخرا.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَظَلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣]،

وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، وقال: ﴿بَلِ اللَّهُ

فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ [الزمر: ٦٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَايْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢]...

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفنون»⁽¹⁸¹⁾: «النعم أضياف وقراها الشكر، والبلايا أضياف وقراها الصبر، فاجتهد أن ترحل الأضياف شاكرة حسن القرى، شاهدة بما تسمع وترى». انتهى.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

[بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ]

الشكر: ظهور ثناء العبد على قلبه إقراراً، وعلى لسانه اعترافاً، وعلى جوارحه طلباً وتركاً⁽¹⁸²⁾.

فالشكر يكون بهذه الثلاثة.

بالقلب: اعترافاً أن النعمة من عند الله جل وعلا وحده، وأن المخلوق مهما علا لا يعدو أن يكون سبباً، ولو شاء الله ما جعله سبباً، ولكن سنة الله تعالى الكونية اقتضت خلق السبب والمسبب. قال بعض السلف: «من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم، ومن هانت عليه المصائب أحرز ثوابها»⁽¹⁸³⁾.

والأقوال: لا بد أن تُفصح بأن هذه النعمة هي من عند الله تعالى، ولا تنسب النعمة إلا لله. وفي «كتاب التوحيد»: «باب: قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣]». «قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو

181 - «الآداب الشرعية» لابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ (2/ 291).

182 - من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص 7). وانظر: شرح المصنف (ص 24).

183 - «صفة الصفوة» (1/ 497).

جار على السنة كثيرة». انتهى

فنسيانك الله تعالى في هذه المواطن دليل على عدم تعظيم المولى جَلَّ جَلَالُهُ، وقادح في كمال توحيدك. فإذا اقترن مع ذلك نسبة الفعل ونسبة الإيجاد والنصرة لغير الله تعالى كان كُفراً أكبر كما هو مُقَرَّرٌ في شروح كتب التوحيد.

والأركان: فمن شُكر النعمة صرفُها في ما يُرضي الله تعالى، والاستعانة بها على طاعة المُنعم وعبادته. فمن لم يصرف النعمة في ما يرضي الله، ولم يستعن بها على عبادة مولاه، لم يكن في عداد الشاكرين.

جمع الشاعر هذه الثلاثة بقوله:

أفادتكمُ النِّعماءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وقد جعل ابن القيم الشكر مَبِينًا على خمس قواعد، وهي: «خضوع الشاكر للمشكور، وحبه

له، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره»⁽¹⁸⁴⁾. انتهى.

واعلم أن توفيق الله لك للشكر نعمة عظيمة، وَمِنَّةٌ جَلِيلَةٌ، حُرْمَتُهَا الْأَشْقِيَاءُ، وَتَفَضُّلُ اللَّهِ بِهَا عَلَى السَّعْدَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ «سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يَصْلِحُ لْغَرْسِ شَجَرَةِ النِّعْمَةِ فَتُثْمَرَ بِالشُّكْرِ، مِنَ الْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَصْلِحُ لْغَرْسِهَا، فَلَوْ غُرِسَتْ فِيهِ لَمْ تُثْمَرْ، فَكَانَ غَرْسُهَا هُنَاكَ ضَائِعًا لَا يَلِيقُ

بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].⁽¹⁸⁵⁾

184 - «مدارج السالكين» (4/2). وانظر فصلا في «الذكر والشكر» في كتاب «الفوائد» (ص 158).

185 - «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 337).

منزلة التوكل

لما كانت هذه المنازل التي مرت معنا لا تحصل إلا بالمجاهدة والصبر، والصبر لا يتيسر إلا لمن صدق توكله على ربه، أتبع الناظم رحمه الله منزلة الشكر بمنزلة التوكل.

يقول ابن حبان رحمه الله في «روضة العقلاء»⁽¹⁸⁶⁾: «التوكل هو نظام الإيمان وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة». انتهى.

ويقول شيخ الإسلام⁽¹⁸⁷⁾: «التوكل من الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فيما يجب الله ويأمر به ويرضاه». انتهى.

قال الناظم رحمه الله:

صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَدَلِ جُهْدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَنِ

التوكل: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها.⁽¹⁸⁸⁾

وقيل: التوكل هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق، وإضافته بالافتقار إلى محول الأحوال.⁽¹⁸⁹⁾

186 - (ص 153).

187 - «مجموع الفتاوى» (16 / 10).

188 - «القول المفيد» (25 / 2)، و«جامع العلوم والحكم» (ص 668)، و«قاعدة في التوكل على الله» في «الفوائد» (ص 107). وعرفه العلامة ابن قاسم في «حاشية ثلاثة الأصول» بقوله: «هو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له». وبنحوه عرفه شيخنا العصيمي في تعليقه على المنظومة (ص 8).

189 - «روضة العقلاء» (ص 156).

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه. وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعدته للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمره.⁽¹⁹⁰⁾

ولهذا قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

[صَجِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ]

أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا.

علاقة الأسباب بالتوكل

[مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَنِ]

أي: فلا تعتمد على الله بقلبك، وتترك فعل الأسباب.

واعلم أن الله ﷻ قد خلق للآدمي آلة يدافع بها عن نفسه الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطلها مدعيًا للتوكل كان جهلاً بالتوكل، ورداً لحكمة الواضع، لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله سبحانه وليس من ضرورته قطع الأسباب. ولو أن إنساناً جاع فلم يأكل، أو احتاج فلم يسأل، أو عري فلم يلبس، فمات دخل النار، لأنه قد دل على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه.⁽¹⁹¹⁾

190 - «القول السديد» (ص 119).

191 - انظر: مقدمة كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي رَحْمَةُ اللَّهِ (1/11).

قال ابن القيم⁽¹⁹²⁾: «أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان». انتهى.

وما العلاقة بين فعل الأسباب والتوكل؟

سألت شيخنا صالحا العصيمي: هل التوكل متضمن أم مستلزم لفعل الأسباب؟

فأجاب وفقه الله: «الأسباب شرط التوكل، والشرط خارج عن ماهية الشيء»⁽¹⁹³⁾.

فنظمتُ هذا المعنى بقولي:

إِنَّ التَّوَكَّلَ شَرْطُهُ الْأَسْبَابُ حَرَمَانُهُ عَيْنُ الْأَسَى وَعَذَابُ

فمن حُرِمَ التَّوَكَّلَ عُدَّ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

ومن بدائع العلامة ابن سعدي في بيان القدر المأذون به في التعلُّق بالأسباب، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ

⁽¹⁹⁴⁾: «على العبد أن يكون توكله واعتماده على الله، وأن يقوم بالأسباب النافعة ولا يعتمد عليها،

ولكن الله إذا يسرها للعبد أو يسر ثمراتها ونتائجها فرح بها العبد واطمأن بها قلبه»⁽¹⁹⁵⁾، من غير

192 - «مدارج السالكين» (1/ 479).

193 - وقد جمعت بفضل الله نحوا من خمسين مسألة أنقلها عن الشيخ صالح العصيمي وفقه الله، ولعل الله

ييسر نشرها قريبا إن شاء الله بعد اطلاع شيخنا عليها.

194 - «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 36).

195 - وقال شيخنا صالح العصيمي وفقه الله أثناء تعليقه على «فتح المجيد» (السنة الثانية/ المجلس 18):

«الطمأنينة إلى السبب نوعان:

أحدهما: طمأنينة سُكون.

والآخر: طمأنينة رُكون.

اعتمادٍ عليها، بل استبشاراً بأنّها من فضله وتيسيره، ولهذا لما ذكّر الله إمدادَ الملائكة للمسلمين في بدر قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبِكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]... انتهى.

فائدة من قصة ذي القرنين

قال العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللهُ مُعَدِّدًا فوائد قصة ذي القرنين وبناء السُّدِّ (196): «ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجِدِّ والعمل، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر...». انتهى.

فالسائرون إلى الله يسعون في رضا محبوبهم سعيًا حثيثًا صادقًا، اعتمادًا عليه سبحانه، وعملاً بالأسباب المشروعة.

ولو توكلَّ العبد على الله حقَّ توكلُّه في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله. (197)

الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز

الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وبأذر الأرض. والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود. قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (198).

والفرق بينهما: اقتران الثاني بالجزم، فإن القلب مع طمأنينة السكون يرجو حصول مقصوده ولا يقطع به، وأمّا في طمأنينة الركون فيكمل تعلقه بالسبب حتى يجزم بحصول مقصوده. انتهى.

196 - «محاسن التأويل» (72 / 7).

197 - انظر: «مدارج السالكين» (61 / 1).

198 - «مدارج السالكين» (485 / 1). وانظر: كتاب «الروح» (ص 302).

وكان يحيى بن معاذ يقول: عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب؟! هيهات...⁽¹⁹⁹⁾

يقول المكي بن عزوز التونسي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁰⁰⁾: «فاليد تعمل، والقلب على الله يتوكل، واللسان يدعو الله، فالشغل الواحد يخدمه الأعضاء الثلاثة، ولا تنافي بين وظائفها الثلاث. هذا هو الشرع الكامل، وبه يتم المأمول للأمل». انتهى.

وهذا موضح في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ».⁽²⁰¹⁾ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁰²⁾: «والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده. فيتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه. فإذا قام به توكل على الله حال مباشرته. فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته. فيتوكل على الله قبله، ومعه، وبعده». انتهى.

وليعلم العبد أن الله كافي، فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]، والوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبب غلط.⁽²⁰³⁾

يقول عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ⁽²⁰⁴⁾: «فعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جمَع بينهما تمُّ مُرَادُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ». انتهى.

199 - «صفة الصفوة» (2/ 292).

200 - «العقائد الكبرى» (ص 53).

201 - وقد سبق تخريجه.

202 - «مدارج السالكين» (1/ 479).

203 - انظر: «صيد الخاطر» (ص 54، 142).

204 - «فتح المجيد» (ص 520). وانظر: «مجموع الفتاوى» (8/ 310).

حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم هو أكمل الأحوال

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].⁽²⁰⁵⁾

فحال النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحال الصَّحَابَةِ مَحْكُ الْأَحْوَالِ وَمِيزَانُهَا، بِهَا يَعْلَمُ صَحِيحُهَا مِنْ سَقِيمِهَا. فَإِنَّ هَمَمَهُمْ كَانَتْ فِي التَّوَكُّلِ أَعْلَى مِنْ هَمَمِ مَنْ بَعْدَهُمْ. فَإِنَّ تَوَكُّلَهُمْ فِي فَتْحِ بَصَائِرِ الْقُلُوبِ، وَأَنْ يَعْبُدَ اللهُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَأَنْ يُوحِّدَ جَمِيعَ الْعِبَاد...⁽²⁰⁶⁾

وهذا هو حال جميع الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم.

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: 71] الآية، وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: 56]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]... إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن القيم عَلَيْهِ السَّلَامُ⁽²⁰⁷⁾: «فقد كان زكريا نجارا، وقد أمر الله نوحا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين.

205- رواه البخاري كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173] الآية،

4287.

206- «مدارج السالكين» (1/494).

207- «الروح» (ص 316).

ألا ترى أنهم بذلوا جُهدَهُم في مُحارَبَةِ أعداء الدين بأيديهم وألستهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها، وأعدُّوا لأهلِيهِم كِفَايَتَهُم مِنَ القُوتِ، اقتداءً بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله. انتهى.

وأعظمُ التوكل على الله، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.⁽²⁰⁸⁾

ولهذا كان صدقُ التوكل علامة إيمان العبد. والذي يتوكل على الله جل وعلا يمضي في شأنه منشراح الصدر، لأنه فوض الأمر إلى الحي الذي لا يموت، وهو الله جَلَّ جَلَالُهُ وتباركت أسماؤه وصفاته.

قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ۗ ﴾^(٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَّأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴿ [الفرقان: ٥٨ - ٥٩].

منزلة الإحسان

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ:

عَبَدُوا إِلَهَهُ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّؤُوا فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ

وهذه منزلة الإحسان.

فهم إذا عبدوا الله، عبدوه وكأنهم يرونه، وهذه من أعلى درجات الإحسان، فإن للإحسان

درجتين: (209)

الدرجة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا مقام المشاهدة.

والدرجة الثانية: فإن لم تكن تراه فهو يراك، وهذا مقام المراقبة أو مقام الإخلاص.

قال بعض السلف: «من عمل على مشاهدة الله، فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله

إياه، فهو مخلص».

ومقام المشاهدة أعظم من مقام المراقبة. فمن عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء

ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة

المعصية، فضلا عن موافقتها. (210)

إذا رأيت الله ﷻ هل تعصيه؟ أبدا. إذا رأيت الله سبحانه، هل تسترسل في الوسواس

وأنت قائم تصلي بين يديه؟ هل تغفل عن ذكره ساعة؟ أبدا...

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

209- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 59)، و«مجموع رسائل ابن رجب» (1/380).

210- انظر: «الجواب الكافي» (ص 74).

أفمن يرى بعين قلبه أن ما أنزل الله إلى رسوله هو الحق، كمن هو أعمى لا يبصر ذلك؟... ولا ريب أن تصديق الخبر واليقين: به يقوى القلب، حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين. فصاحب هذا المقام: كأنه يرى ربه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطلعاً على عباده ناظراً إليهم، يسمع كلامهم ويرى ظواهرهم وبواطنهم. وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي، ويتكلم به عبده جبريل ويأمره وينهاه بما يريد...⁽²¹¹⁾

فإن لم تصل إلى هذا المقام، مُرَّ إلى ما بعده، وهو مقام المراقبة، وهي أنك إذا لم تكن تراه فاعلم أنه يراك.

فإذا كنت تعلم أن الله يراك، فإنه خليك بك أن تترك ما لا يرضي الله جلَّ وعلا.

قال بعضهم: «خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربه منك».⁽²¹²⁾

وفي هذا قال الشافعي:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تُقَلِّ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلِّ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يُخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ⁽²¹³⁾: «قُطِبَ الطاعات للمرء في الدنيا هو إصلاح السرائر وتركُ إفسادِ

الضرائر». انتهى.

وقال القحطاني في «النونية»:

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحِي مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلِّ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

211- «مدارج السالكين» (2/325).

212- انظر: «صفة الصفوة» (1/418) و(2/81).

213- «روضة العقلاء» (ص 27).

لأن ذنوب الخَلَوَات، من أعظم المهلكات، وهي ديدن المنافقين والمنافقات. قال تعالى:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

فالله جل وعلا علمه محيط بكل شيء، وإن ظننت أنك تعصي الله في مكان لا يراك فيه، فبئس ما ظننت بربك، الذي لا تخفى عليه خافية. وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال: ﴿ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [١٣] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣ - ١٤]، وقال ﷺ: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ ٨ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ١ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ٨ - ١٠]...

وَعَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «أَمَّا إِيَّاهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا». (214)

قال بعضهم لمن استوصاه: «اتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك»، وفي هذا المعنى يقول

بعضهم: ⁽²¹⁵⁾

يَا مُدْمِنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَجِي وَاللَّهُ فِي الْخَلْقِ ثَانِيكََا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمهَالُهُ وَسِترُهُ طُـوْلَ مَسَاوِيكََا

وقال وهيب بن الورد رَحْمَةُ اللَّهِ: «اتق أن تُسَبَّ إبليسَ في العلانية، وأنت صديقُه في السرِّ». ⁽²¹⁶⁾

وفي قصيدة «ليس الغريب» لزين العابدين علي بن الحسين:

أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الْأَبْوَابَ مُجْتَهِدًا عَلَى الْمَعَاصِي وَعَيْنُ اللَّهِ

قال السري السَّقْطِي رَحْمَةُ اللَّهِ: «احذر لا تكون ثناء منشورا وعيبا مستورا» ⁽²¹⁷⁾.

يقول ابن القيم ⁽²¹⁸⁾: «وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي مَنْ هو في قبضته وفي داره،

وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير مُتَوَارٍ عنه...». انتهى.

وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيرَتَهُ، وَخَافَ اللَّهَ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ، فَاحْ طَيْبِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَعَلَى عَكْسِ هَذَا مِنْ

هَابِ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَحْتَرَمْ خَلْوَتَهُ بِالْحَقِّ.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَخْلُو بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيُلْقِي اللَّهُ بُغْضَهُ فِي قُلُوبِ

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ». ⁽²¹⁹⁾

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ رَحْمَةُ اللَّهِ: «مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِشَيْءٍ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ شَانَهُ اللَّهُ». وقال:

215- «مجموع رسائل ابن رجب» (1/153).

216- «صفة الصفوة» (1/422).

217- «صفة الصفوة» (1/498).

218- انظر: «الجواب الكافي» (ص 84).

219- انظر: «صيد الخاطر» (ص 126-127).

«إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور»⁽²²⁰⁾.

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

والموجب لخشية الله في السر والعلانية أمور منها:⁽²²¹⁾

- 1 - قوة الإيمان بوعدده ووعيده على المعاصي.
- 2 - ومنها: النظر في شدة بطشه وانتقامه، وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته، كما قال الحسن: «ابن آدم، هل لك طاقة بمحاربة الله؟ فإن من عصاه فقد حاربه، وقال بعضهم: «عجبت من ضعيف يعصي قوياً».
- 3 - ومنها: قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده حيث كانوا.

220 - «صفة الصفوة» (1/425، 426).

221 - «مجموع رسائل ابن رجب» (2/462)، مختصراً.

كمال حالهم في نصح الخلق

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِزْشَادِ وَالْإِحْسَانِ

فهؤلاء الذين بلغوا هذه الدرجات العليا من إخلاص، وصدق، وحب، وخوف، ورجاء، وتوكل، وذكر، وغير ذلك من المنازل التي مرّت معنا، حالهم مع الخلق كما قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

[نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ]

فهم نقاوة المسلمين، وأعظم الناس نصحا للناس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ⁽²²²⁾: «وأهل السنّة والجماعة يتبعون الكتاب والسنّة ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحقّ ويرحمون الخلق». انتهى.

وقد ذكر الله في كتابه عن الأنبياء ﷺ أنهم نصحوا لأمتهم⁽²²³⁾ كما أخبر الله بذلك عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، وعن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال لقومه: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68]، وعن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال بعد أن أهلك الله قومه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: 79].

قال العلامة ابن سعدي⁽²²⁴⁾: «صلاح القلب بكمال الإنابة إلى الله وقوة التوكل عليه، وتأم الإخلاص له، ومحبة الخير لكافة الخلق، وفساده ونقصه بضد ذلك». انتهى.

وهم في هذا النصح مخلصون طالبون للأجر من الله، والخير للمنصوح، ولهذا قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

222- «الفتاوى» (3/ 174)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص 251).

223- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 116).

224- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 11).

[نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ]

ومحبوبهم هو الرحمان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم لا يطلبون من الناس أجراً، ولا ثناءً، وهذا سبيل المرسلين. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، وقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] في خمسة مواضع من سورة الشعراء (الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠)... والآيات في الباب كثيرة.

فسؤال الأجر سمة الذي لا يرجو الله والدار الآخرة، أما أتباع الأنبياء والمرسلين فهم على طريقتهم، لا يسألون من الناس الأجر، ولا يتعلقون بالخلق، لأنهم ناصحون للناس في رضا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فمن اتبع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينبغي له أن يتَّصِفَ بهذه الأوصاف.

ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية من «مسائل كتاب التوحيد» أن فيها: «التَّنبِيهَ عَلَى الْإِحْلَاصِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ». انتهى.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً: «فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً». انتهى.

قال ابن رجب عند حديث «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»⁽²²⁵⁾: «والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم وديانهم، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم...». انتهى.

فالسائرُونَ إلى الله يبلِّغُونَ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَلَا يَغْشَوْنَهُمْ، وَيَقُولُونَ الْحَقَّ، عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ، وَلَا يَبَالُونَ بِسَخَطِ الْخَلْقِ فِي مَقَابِلَةِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ».⁽²²⁶⁾

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين، عيادا بالله من ذلك!.⁽²²⁷⁾

فالذين حققوا هذه المنازل العظيمة، يُصلِحُونَ الْخَلْقَ بِمَا يَرُونَهُ نَصِيحَةً لَهُمْ، لَا بِمَا يَرْضَاهُ النَّاسُ وَيَهْوَوْنَهُ. فَإِنَّ الْعَامَةَ وَالذَّهْمَاءَ إِنَّمَا سُمُّوا عَامَّةً مِنَ الْعَمَى وَقِلَّةَ الْبَصِيرَةِ. فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَبْذُلَ لِلنَّاسِ مَا يَجْبُونَهُ، وَلَكِنْ ابْذُلْ لَهُمْ مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ وَلَوْ أَبَى مِنْ أَبِي.

قال ابن الجوزي⁽²²⁸⁾: «العاقل من يحفظ جانب الله ﷻ، وإن غضب الخلق. وكل من يحفظ جانب المخلوقين، ويضيع حق الخالق، يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه.

قال المأمون لبعض أصحابه: «لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك»... وعلى ضد هذا، كل من يراعي جانب الحق والصواب، يرضى عنه من سَخَطَ عَلَيْهِ... فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق، وإن سخط المخلوق، فإنه يعود صاغرا. ولا يسخط الخالق، فيفوت الحظان جميعا». انتهى.

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوَدُّ فَالْكُلُّ هَيْئٌ فَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثُّرَابِ تُرَابٌ

226- رواه ابن حبان في صحيحه (510/1) رقم 276 واللفظ له، والترمذي (609/4) رقم 2414، وقال الألباني: صحيح.

227- «تيسير العزيز الحميد» (ص 426).

228- «صيد الخاطر» (ص 189)، باختصار.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما

أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة». (229)

قال ابن سعدي في منظومة «منهج الحق»:

وَقَلْبِكَ طَهْرُهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ
وَجَمَلُ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبِكَ إِنَّهُ لِأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

وقد قال أحد السلف: «وددت أن جسدي قرّض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوا الله».

«يعني: لو كان جسده قطع بالمقصات الكبار والناس أطاعوا الله لكان الأمر هينًا، وهذا من

عظم محبته لهم، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يدعو في سجوده يقول: «اللهم إن قبلت من عصاة

أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فداءً، فاجعني فداءً لهم». وهذا أعظم ما يكون من المحبة للخلق

والنصح لهم...» (230).

وقد قيل: «كل ناصح صديق، وليس كل صديق ناصح». (231)

229 - «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ (8 / 103).

230 - من كلام العلامة صالح آل الشيخ وفقه الله في «اللائح البهية في شرح العقيدة الواسطية» (2 / 625).

231 - «الأخلاق» لابن حزم رَحِمَهُ اللهُ (ص 24).

فهؤلاء القوم، كما قال رَحْمَهُ اللهُ:

[نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ]

بماذا نصحوهم؟ بأعظم شيء يوصلهم إلى تلك المنازل العليا، وهو:

[بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ]

فأعظم ما تُقَدِّمُهُ للناس نصحوهم وإرشادهم للخير، وأعظم خير التوحيد، وتحذره من الشر، وأعظم شر الشرك. فهؤلاء الذين ذكرهم الناظم رَحْمَهُ اللهُ قد كَمَّلُوا أنفسهم، وكمَّلُوا غيرهم، وهذه منزلة عالية، يَمُنُّ اللهُ بها على خاصة عباده.

فلا ينبغي لمن عَرَفَ فضلَ التوحيدِ وخطرَ الشرك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجاهل، ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعينك من الناس؟ بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين⁽²³²⁾.

ومن حَكَمِ أَبِي الدرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله ﷻ من موعظة يعظُّ بها قومه فيفترقون قد نفعهم الله ﷻ بها»⁽²³³⁾.

قال الشيخ السعدي⁽²³⁴⁾: «ورحم الله من أعان على الدين ولو بشرط كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين». انتهى.

نكتة بدیعة فی أهمية الدعوة إلى التوحيد وخطر كتمانہ

حذَّر اللهُ تعالى من كتمان الحق، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وأعظم حق

232 - «تيسير العزيز الحميد» (ص 94).

233 - «صفة الصفوة» (1/ 242).

234 - «القول السديد» (ص 27-30).

هو التوحيد. ولهذا قال بعدها: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. وفي هذا نكتة بديعة نبه عليها القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي «تفسيره»⁽²³⁵⁾، فقال: «لما حذّر تعالى من كتمان الحق بيّن أنّ أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانهُ أمرُ التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء». انتهى.

قلت: ومما يؤكد هذا، أنه جاء في الآيات بعدها الكلام على عاقبة من لم يهتد لحقيقة التوحيد، وعاند ربه بأعظم ظلم وأقبح ذنب، وهو اتخاذ الأنداد من دون الله سبحانه، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، الآيات [البقرة: 165-167].

235 - (2/190). وانظر: رسالة نافلة بعنوان: «مقاصد سورة البقرة» للشيخ عبد المالك رمضان وفقه الله.

تعلق قلوبهم بالله

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنَزِلٍ فَوْقَ نَانِي

فهم في الأرض معنا، لكن قلوبهم عند الله جل وعلا، فما من شيء يقومون به إلا والغاية منه هي الله، والقلب متعلق بالله، حبا ورجاء وخوفا.

فَمَعَ مَا تَحَلَّوْا بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَمِنْ نُصْحٍ لِلخَلْقِ، فَصَحَبَتْهُمْ لَهُم بِالظَّاهِرِ وَالْجِسْمِ، وَأَمَّا قُلُوبُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ، فَإِنَّمَا تَجُولُ حَوْلَ الْحَبِيبِ وَتَطْلُبُ مِنْ قُرْبِهِ أَعْظَمَ نَصِيبٍ، فَتَارَةً تَنْكَسِرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحْشَعُ وَتَخْضَعُ لَدَيْهِ، وَطَوْرًا تَشْكُرُهُ لِحُبِّهِ، وَتَدُلُّ لاسْتِحْضَارِ بَرِّهِ وَقُرْبِهِ، ثُمَّ تَمِيلُ إِلَى مَرَاذِيهِ، فَتَجْتَهِدُ فِي عِبَادَتِهِ وَتَحْسُنُ إِلَى مَخْلُوقَاتِهِ، فَهَوْلَاءُ هُمُ النَّاسُ، بَلْ هُمُ الْعُقَلَاءُ الْأَكْيَاسُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ⁽²³⁶⁾.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جواله، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحش» ⁽²³⁷⁾. الحش: المرحاض، والكنيف، وبيت الخلاء. ⁽²³⁸⁾

فما أوسع الفرق بين قلوب تجول حول الحش إذا جالت النفوس العلوية حول العرش، وتندس في الأحجار إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار... ⁽²³⁹⁾

236- انظر: شرح المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 28).

237- انظر: «شرح حديث النزول» لابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 149).

238- انظر: «المصباح المنير» للفيومي رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 78).

239- انظر: «روضة المحيين» لابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 160).

ومن كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو يمدح العلماء، قال:
«صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها مُعلَقةٌ في المَحَلِّ الأعلى...»⁽²⁴⁰⁾.

وقال آخر: «أبدانُ العارفين في الدنيا وقلوبُهم في الآخرة»⁽²⁴¹⁾.

كل الناس في الأرض، غير أن قلوب البعض في السماء، والبعض قلوبهم في أماكن الخلاء.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤].

شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ

وقسم شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ القلوب إلى قلين⁽²⁴²⁾، وهما:

قلب: هو عرش الرحمان، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير.

وقلب: هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين

على ما مضى مهموم بما يستقبل مغموم في الحال...

والنور الذي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم

يكن فيه معرفة الله ومحبه، فحظه الظلمة والضيق». انتهى.

والناس في هذا الباب درجات كثيرة⁽²⁴³⁾. فإذا قوي حال المحب ومعرفته، لم يشغله عن

الذكر بالقلب واللسان شاغل، فهو بين الخلق بجسمه، وقلبه معلق بالمحل الأعلى، كما قال علي

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في وصفهم: «صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلى». وفي هذا المعنى

قيل:

240 - «صفة الصفوة» (1 / 124).

241 - «لطائف المعارف» (ص 407).

242 - انظر «الفوائد» (ص 28)، و«الجواب الكافي» (ص 120).

243 - انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص 685)؛ و«لطائف المعارف» (ص 407).

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمْ فَالْجِسْمُ فِي غُرْبَةِ الرُّوحِ فِي وَطَنِ

وقال غيره:

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدَّثِي وَأَبْحَثُ جِسْمِي مِنْ أَرَادِ جُلُوسِي

فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسُ وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أُنَيْسِي

وهذه كانت حال الرسل والصدّيقين عليهم السلام.

منزلة الرّعاية والخوف من سوء الخاتمة

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

بِاللَّهِ دَعَوَاتُ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانٍ⁽²⁴⁴⁾

بالرغم من منازل الحقّ التي نزلوها، ومنزلة النصح للخلق التي تبوؤوها، والأرواح الفوقانية التي منحوها، فهم مع ذلك يخافون على إيمانهم من النقصان، وعلى أنفسهم من الخذلان.

وهذه منزلة الرعاية⁽²⁴⁵⁾ لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكير في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه عن المفسدات، وينزهه عن المنقصات، فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهادا فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه⁽²⁴⁶⁾.

244- يرى الشيخ عبد الرزاق العباد البدر في شرحه أن الأقرب ضبط البيت على هذا الوجه:

رَعَوْا الْحَقَائِقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلِّهَا خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانٍ

وبهذا، يظهر أن المقصود من هذا البيت الإشارة إلى «منزلة الرعاية»، وذلك بقوله: (رَعَوْا).

قلت: وله وجه، ولكنه مخالف لما قرئ على المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ، والذي أثبتته هو الذي يختاره شيخنا العصيمي، وقد قرأ المنظومة على تلميذ الناظم: الشيخ عبد الله بن عقيل رَحْمَةُ اللَّهِ.

245- قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/437): «منزلة الرعاية: وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص، وحفظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة، وحفظه بقطع التفريق. فالرعاية صيانة وحفظ». انتهى.

246- شرح المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ (ص 29).

فإنهم يخافون على إيمانهم من الضياع، إذ ليست العبرة بنقص البداية، ولكن العبرة بكمال النهاية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿المؤمنون: ٦٠-٦١﴾. قالت عائشة: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾»⁽²⁴⁷⁾.

فهم يفعلون الطاعة، ومع ذلك يخافون من عدم القبول. ولذلك يقول العلماء: لا بد للطائع أن يخاف الله ولو كان في أعظم مقامات الطاعة.

وخوف الله هنا يكون من جهتين:

الجهة الأولى: أن المؤمن يخاف عدم قبول عمله.

والجهة الثانية: أن المؤمن يخاف من سوء الخاتمة.

الخوف من عدم قبول العمل

فأما الجهة الأولى وهي: الخوف من عدم قبول العمل، فقد قال ابن عون: «لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري يقبل منك أم لا؟ ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كُفِّرَتْ عَنْكَ أَمْ لَا؟ لأن عملك مُغَيَّبٌ عَنْكَ كُلُّهُ لا تدري ما الله صانع به؟».

وكان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله،

247- رواه الترمذي (327/5) رقم 3175 - واللفظ له-، وابن ماجه (2/1004) رقم 4198، وهو في

«السلسلة الصحيحة» (1/255) رقم 162.

ويخافون من رده، وهؤلاء الذين ﴿يُؤْتُونَ مَاءًا تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]». وعن فضالة بن عبيد، قال: «لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾».

قال ابن دينار: «الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل». وقال عطاء السلمي: «الحذر: الاتقاء على العمل أن لا يكون لله». وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «أدرکتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهم أيقبل منهم أم لا؟»⁽²⁴⁸⁾.

قلت: ولكن بعض الناس إذا تكلم عن حاله، فكأنه قد اتخذ عند الله عهدا من فرط أمنه من مكر الله جَلَّ جَلَالُهُ، وقد أشار إلى هذا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله⁽²⁴⁹⁾: «ولقد قطع خوف سوء الخاتمة ظهور المتقين، وكان المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالأمان ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾^(٣٩) سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٩-٤٠]». انتهى.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه، فأغلق دونك أبواب المغفرة، وأنت تضحك كيف ترى تكون حالك»⁽²⁵⁰⁾.

248- «لطائف المعارف» (ص 295)، «الحجة في سير الدلجة» (458/1) و«مجموع رسائل ابن رجب» (1/382).

249- «الجواب الكافي» (ص 94).

250- «صفة الصفوة» (1/430).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁵¹⁾: «ومن الاغترار أن تسيء فترى إحسانا فتظن أنك قد سوحت، وتنسى ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123]». وقال: «واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب، فإن العقوبة تتأخر». وقال: «وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتمادا على العفو وينسون العقاب. ومنهم من يعتمد «أني من أهل السنة، أو أن لي حسنات قد تنفع»، وكل هذا لقوة الجهل». انتهى.

ولهذا قال سعيد بن جبير: «رُبَّ حَسَنَةٍ أَدْخَلَتْ صَاحِبَهَا النَّارَ، وَرُبَّ سَيِّئَةٍ أَدْخَلَتْ صَاحِبَهَا الْجَنَّةَ». لماذا؟

قال أهل العلم: إن فاعل الحسنة عملها، فلم تزل بين ناظره مُعجبا بها، مُغترًّا، مُدليا على ربه، مُستعليا، على خلقه، فزَحَّت في قفاه، فأدخلته النار. وإن فاعل السيئة لم تزل سيئته بين ناظره، يخاف عاقبتها، ويخشى شؤمها، فهو بمنزلة واقف تحت جدار يخشى أن ينقُص عليه، فيحمله خوفه ذلك على دوام الإقبال على الله، فيغفر الله له ويدخله الجنة.⁽²⁵²⁾

ولهذا قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «لأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً».

قال الحافظ ابن رجب⁽²⁵³⁾: «اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عجبهم، أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات. فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب. وفي الحديث: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذُنِبُونَ لَحَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،

251- «صيد الخاطر» (ص 133، 342).

252- من تعليق شيخنا صالح العصيمي وفقه الله على المنظومة (ص 6). وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (10/172)، و«الوابل الصيب» لابن القيم (ص 4) فإنه مفيد جداً.

253- «لطائف المعارف» (ص 28) باختصار. وانظر: الفوائد» (ص 85).

«العُجْب»⁽²⁵⁴⁾.

قال الحسن: لو أن ابن آدم كُلمًا قال أصاب، وكُلمًا عمل أحسن، أو شك أن يجن من العُجب.

قال بعضهم: ذنب أفتقر به إليه أحبُّ إليَّ من طاعة أدل بها عليه. أنين المذنبين أحب إليه من زجل المُسبِّحين⁽²⁵⁵⁾، لأن زجل المُسبِّحين رُبما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار.

قال الحسن: إن العبد ليعمل الذنب فلا ينسأه، ولا يزال مُتخوِّفًا منه حتى يدخل الجنة. المقصود من زلل المؤمن ندمه، ومن تفریط أسفه، ومن اعوجاجه تقويمه، ومن تأخره تقديمه، ومن زلقه في هوة الهوى أن يؤخذ بيده فينجى إلى نجوة النجاة. انتهى.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية⁽²⁵⁶⁾: «والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه، ودعاء الله واستغفاره إياه، وشهوده بفقره وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو». انتهى.

254- رواه البزار في مسنده عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال الشيخ الألباني: حسن لغيره، («صحيح الترغيب والترهيب»، رقم 2921).

255- أي: صوت المُسبِّحين.

256- «الفتاوى» (14/181). وانظر «مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية» لصالح الشامي (ص 88).

الخوف من سوء الخاتمة

وأما الجهة الثانية، فهي أن المؤمن يخاف من سوء الخاتمة.

وكيف يأمن من قلبه بين أصبعين؟ وكيف يطيب عيش من لا يدري بما يجتم له؟⁽²⁵⁷⁾
فإن الأعمال بالخواتيم، وكم من عبد سار إلى الله سيرا، ثم خذل في آخر عمره، والعياذ
بالله.

والأمر كما يقول ابن رجب⁽²⁵⁸⁾: «خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد، لا يطلع
عليها الناس». وقال: «دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة». انتهى.

ولا تظننَّ بربك ظنَّ السَّوء، فإنه لا يخذل عبده المطيع الصادق، فقد وعد سبحانه من عمل
صالحا بالخير في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال -وهو أكرم
القائلين-: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، في آيات كثيرة.
ومن ساءت خاتمته، فينطبق عليه وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ
الْجَنَّةِ فِيهَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»⁽²⁵⁹⁾.

257- انظر: «رسائل ابن رجب» (1/369).

258- «جامع العلوم والحكم» (ص 86).

259- رواه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم 2742 ومسلم كتاب الإيثار،
باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس
مُسَلِّمة، رقم (112/179)، عن سهل بن سعد الساعدي.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁶⁰⁾: «فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ: فيدع العمل الأول الذي كان يعمل، وذلك لوجود دسياسة في قلبه - والعياذ بالله - هوت به إلى هاوية. أقول هذا لئلا يظن بالله ظن السوء: فوالله ما من أحد يقبل على الله بصدق وإخلاص، ويعمل بعمل أهل الجنة إلا لم يخذله الله أبداً. فالله تَعَالَى أكرم من عبده، لكن لا بد من بلاء في القلب». انتهى.

وقال عبد الحق الأشبيلي⁽²⁶¹⁾: «وَاعْلَمَ أَنَّ سَوْءَ الْخَاتِمَةِ أَعَادَنَا اللهُ مِنْهَا لَا يَكُونُ لِمَنْ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلَحَ بَاطِنُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقْلِ وَإِصْرَارٌ عَلَى الْكِبَائِرِ وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعِظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ وَيَثِبَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْإِنَابَةِ وَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوِيَةِ فَيَصْطَلِمُهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ وَيَخْتِطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ثُمَّ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ حَالِهِ وَيَخْرُجَ عَنْ سُنَّتِهِ وَيَأْخُذَ فِي غَيْرِ طَرِيقِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِسَوْءِ الْخَاتِمَةِ وَشَوْءِ الْعَاقِبَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ». انتهى.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]. قال أبو الفداء ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك». انتهى.

ويشهد لهذا ما جاء عن جَابِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُبْعَثُ كُلُّ

260 - «شرح الأربعين النووية» (ص 87).

261 - «العاقبة في ذكر الموت»، وعلّق عليه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (11/596) بقوله: «هو مَحْمُولٌ عَلَى الْأَكْثَرِ الْأَغْلَبِ». انتهى. وانظر: تفاسير السلف لقوله تعالى: ﴿مَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ».

عَبْدُ عَلِيٍّ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»⁽²⁶²⁾.

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁶³⁾: «وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تُخطفَ روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه». انتهى.

فالْمُؤْمِنُ يَخَافُ أَنْ يَضِلَّ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَإِنْ كَانَ حَالُهُ الْآنَ حَسَنًا.

وَأَغْبَى النَّاسِ مَنْ ضَلَّ فِي آخِرِ سَفَرِهِ وَقَدْ قَارَبَ الْمَنْزِلَ.⁽²⁶⁴⁾

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁶⁵⁾: «بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة، ثم عرضت له فتنة في الوقت الأخير، كيف نطح مركبه الجرف؛ فغرق وقت الصعود». وقال: «فالْحَذِرِ الْحَذِرَ فَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ كَانَ عَلَى سِنَنِ الصَّوَابِ ثُمَّ زَلَّ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ». انتهى.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.⁽²⁶⁶⁾

262- رواه مسلم كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ، رَقْم (83 / 2878)، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

263- «مختصر منهاج القاصدين» (ص 393).

264- «الفوائد» (ص 134).

265- «صيد الخاطر» (ص 103).

266- «مختصر منهاج القاصدين» (ص 393).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁶⁷⁾: «ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت:

مثل البدعة،

والنفاق،

والكبر،

ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق». انتهى.

وعلى هذه الأمور، تدور عوائق السير إلى الله كما مرَّ معنا في أوَّلِ هذا الشرح من كلام ابن

القيم رَحِمَهُ اللهُ.

ولا ينجو يوم القيامة إلا قلب سليم، وصفه ابن رجب بقوله⁽²⁶⁸⁾: «فالقلب السليم: هو

الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي،

ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي -كبائرهما وصغائرهما- الظاهرة والباطنة، كالرياء

والعجب، والغل والغش، والحقد والحسد وغير ذلك.

وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. انتهى.

وعليه، فمن صفَى سيره من العوائق والمكدرات، كان حريراً به أن يُكْرَمَ في الحياة، وعند

السَّكْرَاتِ، وبعد الممات. نسأل الله الكريم أن يجعلنا من عباده المُكْرَمِينَ في الدنيا والآخرة.

والاستعداد للخاتمة من وسائل النجاة، وهما استعدادان:

▪ استعدادٌ في صلاح القلب: وذلك بالعلم النافع الذي يُورث في القلب العلم بالله

267- نفس المصدر (ص 391).

268- انظر: «رسائل ابن رجب» (1/383).

وَعَلَّمَ ومعرفته وأسمائه وصفاته واليقين في ذلك.

- واستعداداً في صلاح العمل: بأن يمتثل الأمر، ويجتنب ما نهى الله عنه، أو نهى عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون العمل خالصاً صواباً، خالصاً لله، ووفق منهج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يستغفر من الذنوب والخطايا.⁽²⁶⁹⁾

حال السلف مع الخواتيم

من تأمل حال السلف، عرف قدر خوفهم من الله، ومن سوء الخاتمة، بل والموت على غير التوحيد.

وبَوَّبَ البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، «باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يُحْتَم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سَبَقَ لنا؟⁽²⁷⁰⁾

قال بعضهم: «أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر».

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «بات سفيان (أي الثوري) عندي فلما اشتد به الأمر جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض فقال: «والله لذنوبي أهون عندي من ذا. إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت».⁽²⁷¹⁾

وبكى النخعي عند الموت وقال: أنتظر رسول ربي، ما أدري أيبشرني بالجنة أم بالنار؟ وجزع بعض الصحابة عند موته، فسئل عن حاله فقَالَ: إن الله قبض خلقه قبضتين، قبضة

269- «شرح الطحاوية» للعلامة صالح آل الشيخ وفقه الله (2/ 499-500).

270- «جامع العلوم والحكم» (ص 87).

271- انظر: «صفة الصفة» لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ (2/ 85).

للجنة وقبضة للنار ولست أدري في أي القبضتين أنا؟⁽²⁷²⁾

وقال السري السَّقْطِي رَحِمَهُ اللهُ: «إني لأنظر إلى أنفي في كل يوم مرتين مخافة أن يكون قد

اسودَّ وجهي»⁽²⁷³⁾. والأخبار في هذا الباب كثيرة.

شُرُورُ النَّفْسِ كَثِيرَةٌ، وَالنَّاجِيُ مِنْ أَحْتَمَى مِنْهَا

ومن أسباب الخوف من الخاتمة أن المؤمن يعلم أن كمائن النفس كثيرة، والفقيه من علم خباياها، وسعى في إصلاحها وهداها، وهذا لا يكون إلا بالاعتقاد على الله وصدق التوكل عليه، وكمال الاستعانة به سبحانه.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁷⁴⁾: «فأما الطبع فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يغلب، إنما

العجب أن يُغلب». انتهى.

وَاحْذَرِ كَمَائِنَ نَفْسِكَ الَّتِي مَتَى خَرَجْتَ عَلَيْكَ كَسِرَتْ كَسْرَ مُهَانَ

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبة الحاجة: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»⁽²⁷⁵⁾.

فإن شرور النفس عظيمة، والموفق من علمها وسعى لوأدها قبل أن تُفسد عليه خاتمته.

ومن بدائع ابن حزم⁽²⁷⁶⁾: «رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأسد؛ لأن الأسد إذا

272- «الحجة في سير الدلجة» (1/ 458) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب».

273- «صفة الصفوة» (1/ 498).

274- «صيد الخاطر» (ص 8).

275- رواه ابن ماجه (1/ 609) رقم 1892، والترمذي (3/ 405) رقم 1105، والنسائي (6/ 89) رقم

3277 عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم 3149: صحيح. ورواه

الإمام أحمد (4/ 477) رقم 2749 عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

276- «الأخلاق» (ص 53).

سُجنت في البيوت التي يتخذها الملوك، أَمِنْ شَرِّهَا، والنفسُ وإن سُجنت لم يُؤْمَنْ شَرُّهَا». انتهى
قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية⁽²⁷⁷⁾: «وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ من الفوائد:

أن العبد لا يركن إلى نفسه، ولا يسكن إليها. فإن الشر لا يجيء إلا منها. ولا يشتغل بملام
الناس ولا ذمهم إذا أسأؤوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته. وهي إنما أصابته بذنوبه،
فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها، ويستعيد بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن
يعينه على طاعته. فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر...

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه: دعاء الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، فإنه إذا هداه هذا الصراط
أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة وهو إلى
الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب.

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟

وأن المراد بسؤال الهدى: الثبات أو مزيد الهداية...

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبار أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن،
والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا
والآخرة، فيعلم أن الله - بفضلِهِ ورحمته - جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير

277 - انظر: «الفتاوى» (14 / 181 وما بعدها) باختصار، أو رسالة «الحسنة والسيئة» (ص 81)، و«شرح

الطحاوية» لابن أبي العز (ص 269).

المانعة من الشر.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعبر بها، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصالحتنا... فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسول - فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]...

قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون، غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر...». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

منزلة الزهد وجمعية القلب على الله

قال رحمه الله:

عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ

أي: فرغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد.⁽²⁷⁸⁾ فهم وقفوا أنفسهم على طاعة الله جل وعلا، وقطعوا عن كل ما يشغلهم عن سيرهم إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ. فهم يتقلبون في منازل السير إليه سبحانه، لا يشغلهم عنه شاغل. فهم لله وباللهم ومع الله. ومن كان هذا حاله، فإنه يصل إلى الله جل وعلا.

قال ابن القيم⁽²⁷⁹⁾: «تلمح القوم الوجودَ ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمروا للسير في سواء السبيل، فالناس مشغولون بالفضلات، وهم في قطع الفلوات». انتهى.

وقال ابن سعدي معلقاً على هذا البيت⁽²⁸⁰⁾: «ولا يكفي هذا التفرغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمن؛ من تصور علم، وتدبر قرآن، وذكر الله بحضور قلب، وتفكر في عبادة وإحسان، وخوف من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمن وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة حول

278- قال شيخ الإسلام: «والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة... فأما الزهد في النافع فجهل وضلال. انتهى. انظر: «الفتاوى» (290/10)، و«فهارس الفتاوى» (677/36)، و«منزلة الزهد» في «مدارج السالكين» (401/1)؛ و«جامع العلوم والحكم» عند شرح الحديث رقم 31 من الأربعين، وهو حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الزهد.

279- «الفوائد» (ص 60).

280- «شرح المنظومة» (ص 30).

هذه الأمور، متنزهة عن دنيات الأمور والتفكر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والوبال وتضييع الوقت وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل. انتهى.

فمن أراد الفوز بالسعادة الأبدية، فليزِم عتَبَة العبودية، وليشغل وقته بما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إني لأبغض الرجل أن أراه فارغا ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة».

وقال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللهُ: «أما يَسْتَحِي أَحَدُكُمْ أن لو نُشِرَتْ عليه صَحِيفَتُهُ التي أَمَلَّ صَدَرَ نهاره، فإنَّ أكثرَ ما فيها ليس من أمرِ دينه ولا دُنياه».⁽²⁸¹⁾

ومن جميل القول، ما ذكره ابن حزم⁽²⁸²⁾: «حد السُّخْف: هو العمل والقول بما لا يُحتاج إليه في دين ولا دنيا». انتهى

وجاء في خاتمة «المقدمة العزِّيَّة»⁽²⁸³⁾: «ينبغي للإنسان ألا يُرى إلا مُحَصِّلاً حسنةً لمعاده، أو درهماً لمعاشه».⁽²⁸⁴⁾ انتهى.

ومصادق هذا في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨].
فقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك

281 - «صفة الصفوة» (1 / 415).

282 - «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 39).

283 - وهي من المتون المختصرة عند المالكية، وصاحبها: هو أبو الحسن علي بن خلف المنوفي المصري الشاذلي المالكي رَحِمَهُ اللهُ (ت 939 هـ).

284 - استفدت هذا من شرح شيخنا العصيمي على رسالته «تعظيم العلم».

وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لِعِبَوا وأعرَضوا عن ربهم وعن ذكرِهِ، فتكونَ من الخاسرين. انتهى نقلا عن «تفسير السعدي».

منزلة الإخلاص، وإرادة وجه الله

قال رَحِمَهُ اللهُ بعدها:

**حَرَكَاتِهِمْ وَهُمْ وَمُهُمْ وَعَزُّوهُمْ
لِللَّهِ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ**

أشار هنا إلى ثلاثة أحوال قلبية:

أولها: الحركة وهي مجرد الإرادة.

ثانيها: الهم وهو الإرادة المقترنة بالجزم.

ثالثها: العزم وهو الإرادة المقترنة بالجزم مع تهيئ فعل الأسباب المرادة. ⁽²⁸⁵⁾

قال ابن رجب ⁽²⁸⁶⁾: «والعزم نوعان:

أحدهما: عزم المرید على الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: العزم على الاستمرار على الطاعات بعد الدخول فيها، وعلى الانتقال من حال

كامل، إلى حال أكمل منه، وهو من النهايات.

ولهذا سمي الله تعالى خواص الرسل أولوا العزم - وهم خمسة - وهم أفضل الرسل». انتهى.

والمذكور في البيت من حركة، وهم، وعزم، كلها لله لا للخلق والشيطان. فالسائرون إلى الله

لا يُراؤونَ الناس، ولا يطلبون ثناءهم، وإنما يطلبون الله جل وعلا، ومن طلب الله بلغه الله ما

يريد، ومن طلب رؤية الناس رُبما نالها في الدنيا، وجاء يوم القيامة مفلسا.

وفي الحديث: «وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنَّ يُقَالَ جَرِيءٌ أَوْ عَالِمٌ أَوْ جَوَادٌّ فَقَدْ قِيلَ». ⁽²⁸⁷⁾

285- من تعليق شيخنا العصيمي على المنظومة (ص 9). وانظر: «رسائل ابن رجب» (373 / 1) ففيها

تعريفات أخرى للعزم.

286- «رسائل ابن رجب» (373 / 1).

قال ابن الجوزي⁽²⁸⁸⁾: «آه من سكير لم يعلم قدرَ عَرَبَدَتِهِ إِلَّا في وقت الإفافة». انتهى.

إِنَّ منزلة الإخلاص من أعظم ما يُوفَّقُ إليه المرء، وهي سبيل المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ

الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿النساء:﴾

[١٤٧-١٤٥].

فالمنافقون نفاقا أكبر، الذين أخبر الله أنهم ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿النساء: ١٤٢﴾، منزلتهم عند الله
﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

«وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا من

منَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن، ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾،

والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ الذي هو الإسلام

والإيمان والإحسان لله.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلّموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه

الصفات ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي

287- رواه مسلم كتاب الإمارة، باب مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، رقم (152/1905) عن أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

288- «صيد الخاطر» (ص 59).

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرا عظيما)، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابا أو عقابا وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئا لله أعطاه الله خيرا منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا يتتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه». قاله ابن سعدي رحمه الله في «تفسيره».

أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحة

قال رَحِمَهُ اللهُ:

نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

فهؤلاء الناس الذين مرَّ وصفهم في هذه المنازل هم أحق الناس بالصحة. إن كنت مصاحباً فاصحب هؤلاء. وما لا يدرك كله لا يترك كله. فالناس في هذه الأحوال بين مستقل ومستكثر، ولكن هؤلاء هم الذين يسعد العبد بصحبته، وهم الذين أمر الله نبيه أن يصبر نفسه معهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ونهاه أن يطردهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

من الآثار الحسنة لصحبة الأخيار

ومن لطيف ما ذكر، ما قاله ابن كثير مُتَحَدِّثًا عن كلب أصحاب الكهف، فقال رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁸⁹⁾: «ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء، صار باقياً معهم ببقائهم، لأن من أحب قوما سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام». انتهى.

قال ابن حزم الأندلسي⁽²⁹⁰⁾: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء،

289 - «البداية والنهاية» (2/137)، وفي «تفسيره» نحو هذا.

290 - «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 17).

والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة. ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة». انتهى.

وفي الاتصال بالأخيار فوائدٌ عديدةٌ، منها:

- أن كسب صداقة الأخيار واغتنام أدعيتهم في الحياة وبعد الممات من أعظم المكاسب وأجل المغانم.
- أنه بسبب ذلك رُبما حصل إفادة واستفادة من الطرفین، أو نصيحة من أحد الجانين.
- أنه بسبب ذلك يحصل من الأدعية والتوجيهات القلبية ما ينتفع به كلُّ منهما من الآخر في الحياة وبعد الممات.
- أن هذا من البشري في الحياة الدنيا، فمتى وُفق العبد لمحبة الصالحين وصُحبتهم والاتصال بهم، رُجي أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: منه ومن دعاء الصالحين...⁽²⁹¹⁾

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ⁽²⁹²⁾، فَحَامِلِ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ⁽²⁹³⁾، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً⁽²⁹⁴⁾».

291- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» لابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ (ص 80-82) بتصرف.

292- الكير: منفخ الحداد الذي ينفخ به النار.

293- أي: يُعطيك.

وفي الحديث فضيلة صحبة الصالحين، وخطر مجالسة الطالحين من أهل الفسق والفجور والبدع والكفر.

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ عَدَا مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عِلَاكَ وَتُحْقِرَا

سَتُحْقَرُ إِنْ صَحِبْتَ السَّاقِطِينَ وَالبَطَالِينَ، فَإِنَّ العُزْلَةَ أَفْضَلُ مِنْ صُحْبَةِ هَؤُلَاءِ، وَلَآنَ تَكُونُ وَحَدِّكَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ البَطَالِينَ.

قال مالك بن دينار: «إنك أن تنقل الحجارة مع الأبرار، خيرٌ من أن تأكل الخبيص»⁽²⁹⁵⁾ مع

الفجار»⁽²⁹⁶⁾.

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ⁽²⁹⁷⁾: «العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار، لأن مودة الأخيار سريعٌ اتصاها، بطيءٌ انقطاعها، ومودة الأشرار سريعٌ انقطاعها، بطيءٌ اتصاها. وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومن خادَن الأشرار لم يسلم من الدخول في مجلتهم.

فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب لئلا يكون مُريبًا، فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر». انتهى.

294 - رواه البخاري كتابُ الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَابُ المِسْكِ، رقم 5214، ومسلم -واللفظ له- كتابُ البِرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَمُجَانِبَةِ قُرْنَاءِ السُّوءِ رقم (146 - 2628).

295 - نوع من الحلوى يُصنع من التمر والسمن.

296 - «روضة العقلاء» (ص 100).

297 - المصدر السابق (ص 99).

قال شعيب بن حرب رَحِمَهُ اللهُ: «لا تجلس إلا مع أحد رجلين: رجلٍ جلست إليه يُعَلِّمُكَ خيراً فتقبل منه، أو رجلٍ تُعَلِّمُهُ خيراً فيقبل منك، والثالث: اهرب منه».⁽²⁹⁸⁾

قال السعدي⁽²⁹⁹⁾: «صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين». انتهى.

وقال بعضهم: «إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار».⁽³⁰⁰⁾

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءَأَنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ [الصافات: ٥٠ - ٥٧]، أي: كاد أن يهلك معه لو أطاعه، لأن صحبة الأشرار من أعظم الخطر، وجالبة لكل ضرر.⁽³⁰¹⁾

وفي مسائل «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب في قصة إغواء أبي جهل وعبد الله بن أمية لأبي طالب وصرفه عن قول «لا إله إلا الله»، قال رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه مضرة أصحاب السوء على الإنسان»، فينبغي الحذر من قريهم، والحذر من الاستماع لهم.⁽³⁰²⁾

298 - «صفة الصفوة» (5/2).

299 - «بهجة قلوب الأبرار» (ص 185).

300 - «صفة الصفوة» (502/1).

301 - انظر: «أضواء البيان» (4/33) عند تفسير: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

302 - انظر: «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» (ص 144).

ومن دقيق الاستنباط قول الحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ عند شرح حديث: «أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ، فَإِنْ تَكَ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا عَلَيْهِ، وَإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ»: «قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ): يؤخذ منه ترك صحبة أهل البطالة غير الصالحين». قلت: وهذا من فقهه وشُفوفِ نظره رَحِمَهُ اللهُ، وذلك أنه إذا كان غير الصالح لا يصلح أن يصحب المؤمن وهو ميت، فما بالك بصحبته حال حياته!؟؟

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».⁽³⁰³⁾

وَمَا صَاحِبُ الْإِنْسَانِ إِلَّا كَرُفَعَةٍ عَلَى ثَوْبِهِ فَلْيَتَّخِذْهُ مُشَاكِلًا

قال أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ اللهُ⁽³⁰⁴⁾: «الإنسان موسومٌ بسياء من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب».

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما من شيء أدل على شيء، ولا الدخان على النار، من الصاحب على الصاحب.

وقال بعض الحكماء: اعرف أخاك بأخيه قبلك.

وقال بعض الأدباء: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقرينه». انتهى.

قلت: ومن أمثال العرب: «من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه»، و«سَلُّ عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار».

قال المأمون: الإخوان على ثلاث طبقات:

303 - حديث حسن رواه أحمد (142/14) رقم 4817، وأبو داود (259/4) رقم 4833، والترمذي (589/4) رقم 2378، وهو في السلسلة الصحيحة (2/597) رقم 927.

304 - «أدب الدنيا والدين» (ص 267) باختصار.

فإخوان كالغذاء لا يستغنى عنهم أبدا وهم إخوان الصفاء، وإخوان كالدواء يحتاج إليهم في بعض الأوقات وهم الفقهاء، وإخوان كالداء لا يحتاج إليهم أبدا وهم أهل الملق والنفاق لا خير فيهم.⁽³⁰⁵⁾

قال ابن سعدي في منظومة «منهج الحق»:

وَصَاحِبٌ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ
وَأِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِذَا صَحَبْتَهُ خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ
حُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ قَدْ صَحَبْتَهُ كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

نِعْمَ الرَّفِيقُ لَطَالِبِ السَّبِيلِ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

فالذي يصحب هؤلاء هو الذي يكون أهلا لأن يبلغ تلك الدرجات العلاء.

والناظر في الأخوة المعقودة بين الخلق يجدها مقسومة على ثلاثة أنواع:⁽³⁰⁶⁾

أولها: أخوة النسب.

وثانيها: أخوة النشَب - بالشين - .

وثالثها: أخوة الطلب.

فأما أخوة النسب فهي الأخوة التي تجمع بين اثنين فأكثر في الانتساب إلى أب، فالجامع لهم

نطفة ذلك الرجل.

305 - «الآداب الشرعية» (4 / 219)، والملق: الذي يعطي بلسانه ما ليس في قلبه.

306 - من تعليق شيخنا العصيمي وفقه الله على «فصول في فضل العلم وأدبه» منتخبة من كتاب «الذريعة

إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني رَحْمَةُ اللَّهِ.

وأما أخوة النشَب فهي الأخوة التي تجمع بين مُتَشَاكِلِينَ فأكثر في مال أو عقار، فإن النشَب هو المال والعقار وأغراض الدنيا.

وأما أخوة الطلب فهي ما يجمع بين مُتَوَافِقِينَ في طلب مقصود فاضلٍ أو غير فاضل فإن مطالب الخلق متفاوتة، وأعظم هذه الأخوة هي أخوة الدين والعلم.

فأولى الناس أن تتأكد بينهم المودة وتنعقد المحبة وأن يتعاضدوا ويتناصروا هم طلبة العلم والدين، وكل ما يفصم عروة المحبة والمودة بينهم فإنه مما يُضاد هذه الأخوة التي جاءت بها الشريعة.

ومن جميل قول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ في «حلية طالب العلم»: «كما أن العرق دساس، فإن «أدب السوء دساس»، إذ الطبيعة نقالة، والطباع سراقية، والناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرته من كان كذلك، فإنه العطب، «والدفع أسهل من الرفع». وعليه؛ فتخير للزمالة والصدقة من يعينك على مطلبك، ويقربك إلى ربك، ويوافقك على شريف غرضك ومقصدك، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير:

1. صديق منفعة.

2. صديق لذة.

3. صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجهها، المنفعة في الأول واللذة في الثاني. وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدى كل منهما. وصديق الفضيلة هذا «عَمَلَةٌ صَعْبَةٌ» يعز الحصول عليها⁽³⁰⁷⁾. انتهى.

307- وللشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ كلام حسن حول الصداقة في «رسائل الإصلاح» (2/7-19)، فراجعه غير مأمور، فإنه مفيدة جدا، والشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ قد استفاد منه في تقسيم الأصدقاء.

ومع هذا، فلا ينبغي للمسلم أن يضعف سيره وإن قل الرفيق، وطال الطريق.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ⁽³⁰⁸⁾: «وينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة، بل يسير ولو وحيدا غريبا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة». انتهى.

-تم التعليق بحمد الله -⁽³⁰⁹⁾

هذا، والله سبحانه وتعالى المستول، المرجو الإجابة، أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا، ولا يجعلنا من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.⁽³¹⁰⁾

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

308 - «الرسالة التبوكية» (ص 224).

309 - وآخر تعديل كان عصر السبت يوم عرفة عام 1440، الموافق لـ 10 أوت 2019، بمدينة «ليون».

310 - ختم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كتابه «الروح» بهذا الدعاء العظيم.

فهرس الموضوعات

1	المقدمة.....
4	نصُ المنظومة.....
6	بداية الشرح.....
6	معنى السير إلى الله.....
10	التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.....
13	منزلة الإخلاص والاتباع.....
13	الإخلاص.....
17	الاتباع وموافقة السنة.....
19	منزلة الخوف والرجاء والمحبة.....
20	منزلة الرجاء.....
22	منزلة الخوف.....
25	منزلة المحبة.....
29	الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد.....
31	منزلة الذكر.....
37	القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.....
39	ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة.....
43	فعل الطاعة وترك المعصية.....
45	لا ولاية ولا كرامة إلا بلزوم طريق الاستقامة.....
48	المدامومة على النوافل بعد الفرائض.....
53	الحذر من العجب.....
57	منزلة الصبر.....
64	نكتة بديعة حول الصبر.....

- 67 منزلة الرضا
- 69..... فائدة
- 70 منزلة الشكر
- 73 منزلة التوكل
- 74..... علاقة الأسباب بالتوكل
- 76..... فائدة من قصة ذي القرنين
- 76..... الفرق بين الثقة بالله والغرور والعجز
- 78..... حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم هو أكمل الأحوال
- 80 منزلة الإحسان
- 85 كمال حالهم في نُصح الخلق
- 89..... نكتة بديعة في أهمية الدعوة إلى التوحيد وخطر كتمانها
- 91 تعلق قلوبهم بالله
- 94 منزلة الرعاية والخوف من سوء الخاتمة
- 95..... الخوف من عدم قبول العمل
- 99..... الخوف من سوء الخاتمة
- 103..... حال السلف مع الخواتيم
- 104..... شُرور النفس كثيرة، والناجي من احتتمى منها
- 107..... منزلة الزهد وجمعيّة القلب على الله
- 110..... منزلة الإخلاص، وإرادة وجه الله
- 113..... أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحة
- 113..... من الآثار الحسنة لصحة الأختيار
- 121..... فهرس الموضوعات